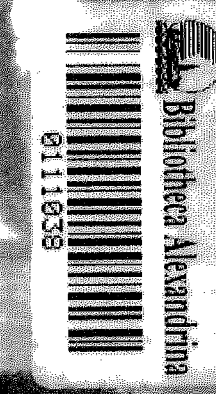
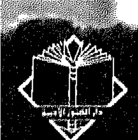
عبد الوهّاب البياتي

مدن ورجال ومتاهات







مدن ورجال ومتاهات



عبد الوهاب البياتي

مدن ورجال ومتاهات



مدن ورجال ومتاهات
عبدالوهاب البياتي
الطبعة الاولى ١٩٩٩
لوحة الغلاف للفنان العراقي: راكان دبدوب

دار الكنوز الادبية
ص . ب / ٧٢٢٦ ـ ١١
هاتف ـ فاكس ٧٣٩٦٩٦
بيروت ـ لبنان

١ ـ متاهات



أبو تمام في مدينة الشمس

- ١ -

هل مات أبو تمام مسموما، كما مات المعري وأبو نواس وابن الرومي؟ الشائعة التاريخية تؤكد أو تنفي ذلك، ولكن ظاهرة موت الشعراء في العصر العباسي في ظروف غامضة تؤكد أحيانا ولا تنفي هذه الظاهرة، وما قتل المتنبي وبشار بن برد وابن المعتز إلا برهان ساطع على أن الشعراء في ذلك العصر كانوا يتعرضون للاذى والوشاية والحسد والمطاردة والقتل على أيدي الغوغاء والشويعرين والمأجورين لبعض الحكام، الذين فاتهم المجد الحقيقي فأرادوا أن يعوضوه بقتل الشعراء، لأنهم كانوا يعرفون أكثر مما ينبغي أو أنهم بوصلة ازمانهم، فمن خلال اماديحهم أو هجائياتهم وتنهداتهم كان الناس يعرفون درجات الحرارة والطقس وثمن الإنسان حيا وميتا، وما يدور وراء أسوار وبوابات القصور المغلقة.

وأبو تمام الذي كان مسكونا بالقلق والشعور بالموت الوجودي، حاول من خلال لواذه بـ ((اللوى)) الوصول إلى

سدرة المنتهى ولكن دون جدوى، فالعصر الذي عاش فيه كان حكرا على ذباب الموائد والببغاوات وحاملي المباخر والخناجر والرماح، فأدلى بدلوه في بئر جنون الآخرين لعل وعسى.. مدح ورثى وتغزل وهجا وتحول قلبه إلى رماد في حريق عمورية وفتحها، ولكن سدرة المنتهى وهي حلمه الإبداعي وصبوته إلى النار والنور كانت تبتعد بقدر ما كان يقترب منها. رأى ما لا يراه الآخرون ولكنه كان يخفي رؤيته ووجعه، كما يفعل أكثر المبدعين في العصور التي يطبق فيها الليل والخوف والجنون على كل شيء. فهل كان ليل أبي تمام نهارا؟ وهل كانت المدن التي يتجول فيها أرقاما في كتاب الموتى؟ وهل رأى بعض هذه المدن في مرآته السحرية وهي تذبح وتسبى وتحرق؟ ورأى البشر الفانين فيها وهم يقعون أسرى في شرك الوجود؟

ما الذي كانت تريد قوله ((حماسة أبي تمام))؟ هل تبكي المدن موتاها إذا انطفأ الضوء وخبت النار؟ من الذي سيعيد كتابة تاريخ الشعر؟

مِحجوزة كل منافي الأرض والسجون

فأين يمضي شاعر

نجا من الموت لكي يموت

من قصيدة (الحصار) بستان عائشة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٢ -

أقيم مهرجان أبي تمـام في مدينـة الموصـل عـام ١٩٧١ وقـد دعي إلى هذا المهرجان بعض أدباء وشعراء العربيـة الكبـار، كـان بينهـم: البردوني ونزار قباني وبلند الحيدري وجبرا إبراهيـم جـبرا وقد وصلتني الدعوة عن طريق السفارة العراقية في القاهرة حيـث كنت أقيم، فترددت في قبولها، ولكـن الحنـين إلى الوطـن ومدينـة الموصل بالذات، تلك المدينة التي قضيت فيها صيف طفولـتي مـع والدي، قضى على ترددي. فالموصل مدينة عريقة، عمرهـا عمـر التاريخ فقاعها يضم رفات أعظـم أمبراطوريـة قـامت في التـاريخ قبل أكثر من ٤٠٠٠ سنة، حيث كان الملك آشـور بانيبـال آخـر ملوك نينوى يقوم بترجمة كتـب السـحر والعرافـة عـن السـومرية والأكدية بعد تأليفها بنحـو ٣٠ قرنـا، ويرعـى العلـوم والفنـون، بجانب كونه فاتحا ومحاربا. وقد اسـتطاع أن يستعيد الكثير مـن تماثيل الآلهة التي ظلت في الهياكل الأجنبية نحو ١٧٠٠ سـنة، وقـد ذكر لنا آشور بانيبال هذه الأخبار في الكثير من مخطوطاته، علـى أن المكتبة التي أسسها في قصره بـ (نينوى) تركـت مـن لوحـات الاجـر كتلـة لا تقـل مسـاحتها عـن مائـة مـتر مكعـب، تكفـي سطورها لتملأ ما لا يقل عن ٥٠٠ مجلد، كل منها يحوي ٥٠٠

صفحة من القطع الكبير وكانت هـذه الألـواح مبعـثرة في غـرف القصر وقد روى H. Layard وهو منقب أنه عندما اكتشف هـذا الكنز التاريخي العظيـم: رأى قوالـب هـذا الكـنز مبعـثرة في عـدة غرف مركومة بعضها فوق بعض، وأكبر جزء مـن هـذه المكتبـة يوجد الآن في المتحف البريطاني.

وبجانب كون الموصل مدينة عريقة فهي مدينة عربية تسكنها اقليـات قوميـة مختلفـة منهـا: السـريان والأرمـن والآشـوريون والأكراد والكلدان واليزيديون، واشتهرت عبر تاريخهـا الطويـل بصناعة الأنسجة الحريرية والعطور ولقبت بالحدبـاء وأم الربيعـين كمـا تعرضـت للغـزوات الأجنبيـة والحصـار والمجاعـة في فـترات متعـددة وقـامت فيهـا أمـارة حمدانيـة ٩١١ ـــ ٩٢٦وحكمهـا الأتابكة سلالة زنكي ١١٢٧- ١٢٥٩.

وتضم في ثراهـا رفـات الكثـير مـن الأوليـاء والأمـراء الذيـن تعاقبوا على حكمها.

أبو تمام الذي ولد سنة ١٩٠ هجرية بقرية يقـال لها جاسـم من أعمال حوران من بلاد دمشق توفى في الموصـل سـنة ٢٢٨ هجرية وكان على بريدها وقبره بالموصل خارج باب الميدان على حافة الخندق، والعامة تقول: هذا قبر تمام الشاعر.

- ٣ -

مات أبو تمام في الثامنة والثلاثين من عمره ولكنه تـرك تراثـا ضخما كان منه (كتاب الحماسة) الذي جمعه بهمـدان في فصـل الشتاء بدار وزيرها، و (فحول الشـعراء) الـذي جمـع فيـه طائفـة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمـين والإسـلام، وكـان يحفـظ أربعة عشر ألف ارجوزة. أما ديوانه فقد جمعه أبـو بكـر الصـولي ورتبه على الحروف الأبجدية ثم جمعه علي بـن حمـزة الأصبهـاني ولم يرتبه على الحروف بل علـى الأبـواب. وكـان كمـا جـاء في ترجمة حياته أسمر طويلا، نشـأ في مصـر وجـالس أدباءهـا وأخـذ عنهـم حتى اشتهر. سُـئل البحـتري عنـه فقـال: (مداحـة نواحـة) وكان الحسن بن رجاء يقـول: مـا رأيـت أحـدا قـط أعلـم بجيـد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام.

تملكـته الغربـة وتملكهـا ولكـن مـن الصعوبـة الاجابـة علـى سؤال: هل أن غربته كانت غربة اجتماعيـة أم غربـة وجوديـة؟: (وطول مقام المرء في الحي مخلق/ لديباجـتيه فاغترب تتجـدد) وسمع إبراهيم بن العباس الصولي أبا تمام ينشـد شـعرا في المعتصـم فقال له: يا أبا تمام امراء الكلام رعية لاحسانك.

والمهرجان الذي أقيم له في الموصل، كان يليق بشاعر عظيـم

مثله، فقد توافد الضيوف والمدعوون من كل حدب وصوب، وحلوا ضيوفا في البداية في فندق القصر العباسي في بغداد. ومن طرائف ما حدث في هذا الفندق أن بعض نزلائه اشتكوا إلى إدارته بأن الضيوف يحدثون ضوضاء عارمة طوال الليل مما سبب لهم الأرق، فقام مدير الفندق بمراقبة ما كان يجري، فظهر أن بعض شعراء المهرجان كانوا يتمرنون طوال الليل على القاء قصائدهم في غرفهم المفتوحة النوافذ وأن بعضهم كان لا يكتفي بذلك، بل كان يقف أمام المرآة وينفش شعره أملا بالوصول إلى ضفاف بحر أبي تمام دون جدوى.

عندما وصلنا إلى الموصل ذهبت للبحث عن صيف طفولتي، فوجدت أن المدينة قد تغيرت معالمها، فهناك شوارع وحارات وطرقات قد أزيلت وحلت مكانها الغربة والوحشة، كما حدث للكثير من المدن العراقية والعربية، حيث قصت أجنحتها وتحولت إلى وحدات سكنية.

كان الشاعر عبد الله البردوني نجم المهرجان بلا منازع، فقد بهر الحاضرين بلباسه الشعبي المتواضع وتضاريس وجهه وصوته الشجي الأجش وهو يحاول الاقتراب به من كون أبي تمام الشعري أصالة ومحاكاة، فقصيدته البائية اثارت أعجاب جميع من في القاعة: الحداثوي والعمودي والكلاسيكي والجاهل:

ماذا أحدّثُ عن صنعاء يا أبتي   مليحة: عاشقاها: السل والجرب

- ٤ -

كان من ضمن برامج مهرجان أبي تمام المرور في طريق العودة إلى بغداد بمدينة ((الحضر)) (مدينة الشمس) وهي المدينة التي تعاقب عليها الغزاة الاغريق والرومان والفرثيون وظلت صامدة بأطلالها، لتكون شاهدة على التاريخ الذي كان يصنعه الغزاة بالحرائق والقتل والتدمير. وتقع الحضر على الثرثار على بعد ١١٥ كم جنوب غرب الموصل و ٧٠ كم غرب القيارة وكانت كما تقول المصادر التاريخية عاصمة لمملكة عربية في مطلع القرن الأول للميلاد، تمتد حدودها من دجلة شرقا إلى الفرات غربا وجبال سنجار شمالا ومشارق المدائن جنوبا وكانت تتمتع بالاستقلال الذاتي ضمن السيطرة العامة للامبراطورية الفرثية وتعرف هذه المملكة باسم ((عربايا)) أي بلاد العرب. والحضر من مدن البوادي كالبتراء وتدمر التي تعرف بمدن القوافل أو مدن الحدود وقد استقرت بعض القبائل فيها وانشأوا بيتا للأصنام كانوا يقدمون إليها نذورهم ويحجون إليها في أعيادهم ويدفنون بالقرب منها موتاهم وكانت الشمس أعظم آلهتهم. (أما المكانة الدينية للحضر فقد جعلت القبائل العربية تهرع لنجدتها في أوقات الشدة دفاعا عن أصنامها ومعابدها) وقد ذكر

ابن الكلبي في كتابه (الأصنام) أن عرب الجاهلية كانوا يصنعون أصنامهم فيها. وقد عثر فيها على تماثيل رائعة تمثل آلهة اغريقية مثل (بوسايدون ـ اله البحر) و (ابولو) و (كيوبيد ـ اله الحب). أما أبرز ما اكتشف في الحضر فيتمثل في العثور على الواح من الحجر عليها كتابات آرامية وعلى تمثال لهرقل بحجم كبير وعلى منجنيق النار وقد عثر عليه كاملا، كنا نقف ذاهلين أمام روعة بعض التماثيل. قال جبرا إبراهيم جبرا: (من يدري فقد يكون أبو تمام مر بمدينة الشمس هذه وأحب امرأة من باديتها). فعقب بلند الحيدري ضاحكا: ((وهل كان لأبي تمام الوقت ليحب؟)) قلت: ((الموت وحده هو الذي يعرف)). عندما اقتربنا أكثر وقعت أبصارنا على تمثال قاوم الزمن والموت مثل جوهرة أو قصيدة حب وبقي محتفظا بضوء البرهة التاريخية التي تم إنجازه فيها ـ أطل علينا منه وجه امرأة فارطة الجمال، كدت أصرخ فهذا الوجه الملائكي يشبه وجوه كل اللواتي في حياتي، مددت يدي المرتجفة إلى شعرها ضارعا ولكن يدا أخرى امتدت وامسكت بيدي بقوة، كانت يد الحارس البدوي الذي يقف بجوار التمثال. لم أقل شيئا. تركنا المكان، قال جبرا إبراهيم جبرا: لِمَ فعل الحارس هذا؟ قلت: إنه عاشق لهذه الساحرة الحجرية ويغار عليها. التفت كان الحارس جامدا في مكانه. عدت أقول: الغريب أن أوصاف أبي تمام تنطبق على هذا الحارس (السمرة والطول).

١٠

عن المنفى والمكان

- ١ -

نقع أحياناً في خطأ فادح فنتصور أننا في المنفى، لأن الإنسان منذ ولادته يولد منفياً، ويعيش منفياً ويموت منفياً ويعتقد أنه عندما ينتقل من مدينة إلى مدينة أخرى في منفاه الكبير الذي هو العالم أنه منفي. فـ ((العالم منفى في داخل منفى)) كما قلت في احدى قصائدي. وانتقال الإنسان أو تجلياته في المنافي تشبه ((البابوشكا)) أي الدمية الروسية التي كلما فككناها وجدنا في داخلها دمية أصغر منها.

في العالم الثالث بالذات لم تعد الأوطان توفر أي طقس أو مناخ روحي ومادي للمثقف والكاتب ولهذا فإنه يظل يعضُّ قيده وينقر قضبان قفصه حتى يموت أو يحاول استبدال القيود بالقيود والمنافي بالمنافي حتى يموت ويكتشف الإنسان وهو ينفي نفسه أو يُنفى أنه مقبل على ربيع الإنسان ولكنه يكتشف بعد وهلة أنه وقع في منفى جديد لا يقل قسوة عن منفاه السابق.

وعندما يتجاوز الشاعر حدود آخر منفى له على الأرض يطلق صيحة هي أشبه بصيحة الإنسان الذي واجه الطوفان في

الملحمة البابلية القديمة. إذ أن روحه تغوص في طينة أرض خرافية، كلما حاول أن يستعيدها أوغل أكثر فأكثر في تلك المجاهل المائية الصحراوية. وعند ذلك يتساوى عنده الليل والنهار، النور والظلمة، والآلم والسعادة، فتصبح كل المنافي وطنا واحدا لكنه وطن خرافي ولربما أسطوري يظل يجوب فيه إلى أن يموت.

وعندما يبدأ الإنسان في منفاه الأول ((الوطن)) يخدع نفسه فينظر إلى ساعته بين الحين والآخر ويحصي كل الساعات ويعد الأيام والشهور والسنوات على أمل أن تشرق شمس ا لله على ربيع مملكة الإنسان، وهناك شعراء قد يكتبون ويموتون دون أن يدروا أنهم في دائرة خديعة كبرى والبعض منهم يتجاوز هذا الاحساس ولكن بعد ان يسقط ريشه كطائر مسحور والبعض يتجاوز هذا ويصل إلى حدود مملكة الليل والنهار أو إلى أرض الطوفان المار ذكرها.

لم تكن لدي بوصلة أو خريطة أو دليل أتوجه إليه بأسئلتي ولهذا فإن حدسي الباطني كان ينبعث منه برق يضيء ظلمات الماضي والحاضر والمستقبل فكنت أرى آخر تخوم العالم التي أصلها بعد رحلة شعرية مضنية.

منذ صرختي الأولى وأنا في يد القابلة شعرت برماح النور تطعن عيني وبريح صرصر عاتية تهب على المدينة التي ولدت فيها. أحسست عند ذاك أنني في اللامكان واللازمان أو أنني جئت قبل البداية أو قبل النهاية، فنظرت فيما بعد إلى وجهي في المرآة فأحسست أن لون عيني لا يشبه لون عيني الأخرى التي كنت أحملها في زمن آخر سبق لي أن ولدت فيه أو زمن آخر

سأولد فيه. حركت أصابع يدي فقبضت على الريح والمطر وعلى حجارة القمر التي كان رواد الفضاء لم يحملوها بعد إلى أرضنا فقلت من أين لي بهذه الأحجار وظننت أنها أحجار أرضية ولكنني علمت بعد سنوات طويلة أنها كانت من أرض القمر أو من كوكب آخر، وقلت لنفسي من أين لي بهذه الحجارة؟ وحاول شعري أن يكتشف الكوكب الذي جاءت منه هذه الحجارة اللاهية ولكنني لم أستطع أن أكتشف هذا السر حتى الآن، أحيانا أحس وبدون تعال أو غرور إنني ولدت في نهاية هذا العالم ولكنني أحس في الوقت نفسه أنني ولدت في بدايته فمن جاء بي إلى هنا ؟.

- ٢ -

الذي يتحكم باحساسي بالمكان هو ما سبق أن قلته وهو أنني انتمي أو جئت من أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة ومنها ما يرتبط بالزمن القمري ومنها ما يرتبط بزمن الإجرام السماوية الأخرى، فإذا كان الإنسان قد ولد من الطين فمن يدري أننا سقطنا على شكل رماد من كواكب أخرى، كما أن قطرات دم الإنسان لا تستطيع أن تعود إلى مصادرها الأولية والأنهار إلى ينابيعها الأصلية فكذلك انتماء الإنسان، أي أن ((تعيّنه)) في هذا المكان أو ذاك أو هذا الزمن أو ذاك جاء أشبه بضربة نرد، ولكن الإنسان وهو في هذا الوضع يحاول أن يتأقلم وأن يمارس لعبة الفصول الأربعة والارتباط بالتقويم وبالآخر ـ أي الإنسان الآخر ـ الذي هو مثله يتخبط مثل سمكة في شبكة الصيد المجهول.. ولهذا فإنني اعتقد أن الإنسان مركب من ذرات تنتمي إلى أمكنة متعددة منها: المكان الأسطوري أو الميثولوجي والمكان التاريخي والمكان الزمني والمكان الأبدي وهو يدور مثل الثور حول رحى الحاضر أي الحضور في المكان. ولعل الحضور في المكان هو المنفى الحقيقي للإنسان لأنه لا يعرف ماذا يفعل وكيف يتمرد على شرطه اللاإنساني وكيف يختار وكيف يتنفس

وكيف يقرأ وماذا يقرأ، وإذا كتب عليه أن يكون شاعرا فعليه أن يحترق في حضوره المكاني لكي ينتقل إلى الأمكنة الأخرى التي ذكرناها. فالانتقال من الحضور المكاني إلى المكان الأسطوري أو التاريخي يشبه عملية احتراق بطيء لمعان غامضة مجهولة، ومن مركبها القادم، هذه المعادن المجهولة ستقرر مصيره - أي مصير الإنسان والشاعر فعندما أكتب قصيدة عن بغداد فأنا لا أستطيع أن أكتب عن بغداد التي ولدت أنا فيها وحسب أو ولد أجدادي في اساساتها، كما لا أستطيع أن أكتب عنها في مكان تاريخي آخر، فعند موضع الاستحالة أو الحيرة هذه تمتلكني الرهبة فأحاول أن اجمع أجزاء الرماد الذي تساقط من هذه المدينة وهي تولد لتعيد صياغته من جديد منتظرا أن تولد بغداد أخرى في شعري هي بغداد مدينة الإنسان والمستقبل.

هناك شعراء قد يكتبون إنشاء وصفيا عن هذه المدينة أو تلك ولكنني أحاول أن أحول الموضوع الواقعي إلى موضوع اسطوري أو أمزج بين الواقع والاسطورة ولهذا فإنني كرهت الشعر الظرفي أو الوصفي منذ بداية كتاباتي للشعر. ولا أستطيع أن ((اتعين)) في حالة معينة، فالصورة التي أرسمها للأشياء هي صورة الأشياء ونقيضها وصورتها في الماضي والحاضر والمستقبل أو صورتها الأخرى الغائبة والتي سيطول غيابها.

أشعر أن مكاني العالم كله أو ما هو أبعد من العالم فوطني هو الذي يسكن في المستقبل، والذي يسافر من حاضره إلى المستقبل يستغني باستمرار عن متاعه وحاجاته دائما لأنه يشعر أن هناك من يطارده وأنه كتب عليه الرحيل الدائم وهذا ما تفعله قبائل الطير عندما تهاجر، أو قبائل العالم القديم عندما كانت تجوب

الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها أو مشرقها إلى مغربها تاركة أمتعتها ورموزها على ضفاف النهار وعلى التلال والجبال وحتى رماد مواقدها الذي يتحول بدوره إلى سماد جديد في باطن الأرض.. حتى أن بعض الأساطير تقول أن الإنسان عندما يموت تحل روحه في الطيور وتأخذ أشكالها وتمارس هجراتها السرية في ليل العالم، فالإنسان إذن هو مسافر في حياته وموته، أي أن الإنسان يحاول أن يحافظ على جوهره الفاعل سواء كان حيا أم ميتا.

والبرك التي تصنعها الأمطار متروكة لاشعة الشمس لكي تجف أو لترد إليها الغزلان العطشى لكي تشرب من مائها وإذا عز ذلك فإن السماء تستخدمها كمرآة لها.

قد أحلم بالعودة إلى بغداد بعد موتي وولادتي المئة، أي أنني أحب أن أولد أكثر من تسعين مرة في المنفى وفي آخر مرة قد أفكر بالعودة لأن بغداد التي أحبها منحتني كل ما تملك من خوف وجراح وفقر وتمزق وشعور بالقلق وهي أم قاسية ولكننا نحبها على علاتها لأنها أمنا.

- ٣ -

أحيانا اكتب شعرا عن مدن لم أعش فيها ولكنني سكنت وعشت فيها فيما بعد، منها قصائدي التي كتبتها عن غرناطة وقرطبة واشبيلية وعن الغجر ولوركا والأشياء الأخرى، ومنها قصائد كتبتها في القاهرة علي سبيل المثال ولكنها لا تنتمي إلى الزمن الذي عشت فيه. أذكر مثلا قصيدة ((مرثية إلى اخناتون)) التي ترتبط بالمكان التأريخي والأسطوري لمصر، وقصيدة ((رسائل إلى الأمام الشافعي)) التي ترتبط بالتأريخ الديني والمعتقد الشعبي وهكذا الأمر.

أي أنني عندما عشت في تلك المدن لم أرتبط بالوضع الراهن فيها بل حاولت أن أمد جذور قصائدي إلى تأريخها الإنساني والأسطوري والشعبي لأنني كنت أحس أن هذه المدينة أو تلك.. هي المدينة التي أحب أو أعشق.. فالشعر إذن ينبع من المكان ولا يرتبط به بشكل عضوي، بل أنه يحاول أن يمتد إلى المكان بأبعاده الأسطورية والتأريخية واللاهوتية والشعبية. وإذا كنا قد جئنا من اللامكان إلى المكان فإننا سنعود إلى اللامكان من جديد سواء من خلال عملية الابداع الشعري أو الولادة والموت.

أستطيع أن أقول أن دارس شعري يحتاج بالدرجة الأولى إلى

مقدرة روحية لاختراق الطبقات الشعرية التي تكونت بفعل الألم العميق والتأمل بمأساة الإنسان كما يحتاج إلى رؤية فلسفية، ولا أقصد الرؤية الفلسفية الكلاسيكية ما تم انجازه في حقول الفلسفة بل إلى رؤية فلسفة مستقبلية وهذا ما يعود بي إلى القول أن الناقد الحقيقي يحتاج إلى الانطلاق من المكان إلى اللامكان أو العكس بالعكس وهذه عملية مضنية قد لا يقوى أو يقدر عليها أي ناقد. ما كتب من الشعر العربي حتى الآن برمته تناول الظواهر الخارجية للقصيدة ومواجدها الروحية التي تضرب في داخلها باسقاطها في حالات تاريخية وأسطورية ((منجزة)) وليس إلى احالات أسطورية أو تاريخية هي في سبيل الإنجاز، واذكر على سبيل المثال أن الفيلسوف الألماني ((هيدغر)) عندما درس بعض انجازات الشعر الألماني لم يعتمد على المقولات النقدية والفلسفية السائدة بل اعتمد على رؤيا ورؤية فلسفية جديدة وحاول اكتشاف ما تم انجازه من جديد في هذا الشعر. وكان الدكتور الراحل محمد غنيمي هلال وهو تلميذ سارتر يتوق أو يتمنى أن يدرس شعري على ضوء ما تقدم ولكن حالته الصحية في سنواته الأخيرة وانشغاله بالتدريس حالت دون اتمام مشروعه وهذا يقودنا إلى القول أن بعض الشعر لا يمكن دراسته من خلال المقولات النقدية الأدبية بل من خلال المقولات الفلسفية والكشوفات المتعددة الأخرى في العلوم الإنسانية. وهي ما يطلق عليه أحيانا الحفريات المعرفية.

ولأنه لابد للمهاجر أو المسافر في الزمان والمكان من متاريس وحصون يحتمي بها، فقد كانت المقاهي هي أحد حصوني ومتاريسي في مدن العالم فكنت التقي في المقهى بأصدقائي القادمين من كل مكان أو الذين يقيمون معي في نفس المدينة

وأقرأ الكتب وأرد على الرسائل التي تصلني وأتمرد أيضا على الجدران الأربعة للبيت الذي أقيم فيه، فالمقهى بفضائه الواسع وبضوضائه وبأناسه الذين يتحركون باستمرار يمنحني الشعور بأنني أجلس في مقهى مطار أو مقهى محطة سكة حديد لأن المقهى سيغلق أبوابه إن آجلا أو عاجلا، ففيه أيضا يتم الصراع مع الزمن ومحاولة القبض على ناصيته وتحريكه بحرية كما نحرك الرسوم، كما أن تعاقب الوجوه الصديقة أو المجهولة يمنحني القدرة على اكتشاف أشياء جديدة دائما وأبدا، فبعض الأصدقاء الذين التقيت بهم صدفة أصبحوا أصدقاء لي طوال عمري، وبعض النساء أيضا اللواتي التقيت بهن في تلك المقاهي عن طريق الصدفة بالقرب من التليفون أو أن احداهن استعارت سيكارة مني أو ولاعة فكان مثل هذا اللقاء العابر بداية لصداقة عميقة. وبعدها اكتشف أن هذه المرأة المجهولة أو تلك هي إنسانة مثقفة أو شاعرة أو موسيقية.

- ٤ -

لعل مقاهي الأرصفة هي التي كانت أحب إلى نفسي فهي تضم رواد المقهى بجانب مئات بل آلاف العابرين وكم من مصادفات جميلة جداً مرت بي وأنا اقضي أوقاتي في مثل تلك المقاهي وبخاصة في مدريد وباريس وكل الذين كنت التقي بهم أصبحوا أصدقائي ولم يكن لقائي بهم لقاء الصدفة كما يخيل للبعض بل أن القدر هو الذي كان ينصب الكمائن ويرتب المواعيد . كان هناك شيء مرسوم على الخريطة غير المرئية وكان القدر ينتظر اللحظة أو البرهة لكي ينجزه ويحققه .

أنا لم أكتب عني والمقاهي بل كتبت عن المكان الذي كنت آوي إليه سواء كان مقهى أم معبداً وسبق أن قلت أنني كنت، أحتمي بمتراس لكي أتأمل الأشياء فلم تكن الحانة أو المقهى هو الهدف بل كانت الوسيلة لكي أعيش مع الناس بدقائق وتفصيلات حياتهم اليومية لأنني أغيب أحياناً بحسي عن تلك المقاهي وأنا أجلس فيها ساعات طويلة أحياناً لا أرى ولا أسمع ، وعندما أغادر المقهى لا أتذكر ما حدث لي .. كان هذا يحدث لي أحياناً كثيرة . وأنا أكتب في كل الحالات سواء على طاولة المقهى أو على جدران بيتي أو على شيء ولكن طاولة المقهى

أحياناً قد تمنحني فرصة لكي اختلس النظرات هنا أو هناك وإلى إضافة شيء جديد إلى القصيدة لم يخطر علي بالي من قبل ، فعلى طاولة المقهى يجتمع الكون والعالم وبخاصة إذا كنت أحس بأنني وحدي وهذا الاحساس بالوحدة يلازمني أينما أكون ولكن طاولة المقهى تجعلني أحس أكثر فأكثر بهذه الوحدة ...

جئت إلى عمان بعد رحلة طويلة في مدن العالم لكي أستريح وأضع رأسي على الوسادة وأنام ، ولكنني وجدت نفسي أبدأ من جديد كما كان يحدث لي في كل مدن العالم التي سكنت فيها حيث التقيت بأصدقاء جدد سواء من الأردن أو العراق أو بقية الأقطار العربية. ومن هذه المدينة بدأت بمرحلة شعرية جديدة توجت بديوان ((كتاب المراثي)) ومعظم قصائد هذا الديوان كتبتها في عمان باستثناء قصائد قليلة قد تبلغ ربع هذا الديوان كتبتها في أيامي الأخيرة في أسبانيا وأيامي القليلة في بغداد عام ١٩٩٠، أي أن وقتي في عمان ضاع بين المقاهي أيضاً والبيت والكتابة والقراءة ، كما ضاع في مدن أخرى ، ولكني اعزي نفسي دائماً وأبداً بأنني قد عدت وما أزال من زيارتي أو إقامتي هذه في عمان بذهب القصائد والرماد كما قلت في إحدى قصائدي المنشورة في ((بستان عائشة)).. وإقامتي في عمان تشكل أول تجربة لي في حياتي ، أي أنني أقيم على تخوم الوطن وكثيراً ما أرى الوطن في الليل عندما أنام في حلمي وأسمع دقات قلبه وأشم أحياناً قليلة عبير أزهاره التي تحملها الريح وبخاصة بعد منتصف الليل .

الاصبهاني وسيف الدولة

- ١ -

لا أعتقد أن الدافع الأدبي وحده هو الذي دفع ابا الفرج الاصبهاني إلى إهدائه هذا السفر النفيس إلى سيف الدولة ، لأن سيف الدولة لم يكن يملك الوقت الكافي لقراءته أو تصفحه فقد كان في شغل شاغل بحروبه مع الروم وخصوماته مع أقربائه وبانتظار قصائد المتنبي .واللافت أن أحداً من المؤرخين لا يعلم بمصير هذه المخطوطة، وكيف تم الحفاظ على مضمونها؟ وهل كانت هناك نسخ أخرى منها؟ وآية ذلك أنها لا تزال باقية بالرغم من فقدان النسخة الأصلية.

عندما نقرأ (الأغاني) لا نحس أننا نحتاج إلى عمر طويل حتى نكتشف ما أنجزه المؤلف في عمله الإبداعي هذا، ذلك لأن قراءته لا تكفي لتكوين فكرة عن مغامرة المؤلف والبحث عن سر تأليفه هذا الكتاب؟ وهل كان يقصد به مجرد التسلية وسرد الوقائع؟ أم أن هناك سراً عميقاً خشي أن يبوح به وانعكس في اختياراته لكثير من الشخصيات. والمهم في هذا الكتاب أنه لم يهمل أحداً من الشعراء باستثناء إهماله لأبي نواس. والغريب أن الناشرين

عندما نشروا (الأغــاني) في أربعـة وعشـرين مجلـداً أضـافوا إليهـا كتاب ابن منظور (أخبـار أبـي نـواس) بـالرغم مـن عـدم وجـود علاقة بين الأغاني و كتاب ابن منظور. ترى هل هو القدر الـذي ساق الناشرين إلى هذا التصرف أم أنهـم حققـوا رغبـة دفينـة في نفس ابن منظور؟ ومن يقرأ كتاب ابـن منظـور يكتشـف الجهـد المضني لمؤلفه إذ أنه راجع عشرات الكتب لالتقاط أخباره منها .

والملاحظ أن بعض دور النشر التي أعادت طبـع كتـاب ابـن منظور نشرته كاملاً أو منقوصاً.

والقارىء الذي يعود إلى بعض كتابات الكـاتب الأرجنتيـني بورخيـس يكتشـف أنـه استفاد مـن التقنيـة العجيبـة في كتـاب الأغاني وأوَّلها تـأويلات متعـددة ، وهـذا يعـود إلى ثـورة الأدب الحديث واكتشاف نظرية تأويل النص . وكتاب الأغـاني حـافل بمثل هذه المقدرة فبعض شخوص هذا الكتاب ليست كما هي في الواقع وبعضها كانت كما هـي في الواقـع وبعضهـا الآخـر كمـا كان يجب أن يكون وهذا المنهج يقدم لنا اتجاهاً جديداً في الكتابة والتـأليف يختلـف عـن اتجـاه الجـاحظ أو أبـي حيـان التوحيـدي وسواهما من كتاب النثر العربي .

- ٢ -

عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية كان مدرس اللغة العربية الأستاذ صادق الملائكة وهو والد الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة، يقرأ لنا فصولاً وصفحات من هذا الكتاب ((الأغاني)) على أنه كتاب للتسلية والمتعة .

وكذلك كان يفعل الدكتور مصطفى جواد في دار المعلمين العالية إذ أنه كان يحفظ صفحات كثيرة منه ويرويها عن ظهر قلب دون الإشارة إلى ما تتضمنه روايات المؤلف. وإذا ما عدنا إلى تاريخ أبي الفرج الاصبهاني لاكتشفنا أنه كان من أنصار الدولة الأموية وعند سقوطها هرب إلى اصبهان وغير اسمه باسم مستعار وهو الأسم الذي عرفناه به. ربما تكون هذه الحقيقة تصلح مفتاحاً للاقتراب من عالم كتابه. وهل كان مثله من يدفن كنزاً نفيساً في باطن الأرض ويضع عليه شاهدة تشير إلى ميت مجهول؟

وهذا الكنز الذي دفنه أبو الفرج الاصبهاني في تضاعيف كتابه يحمل أسرار المرحلة المضطربة التي واكبت مصير الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية دون الإشارة إلى الوقائع التاريخية إنما جعل الشخصيات والأشعار تتحدث بموضوعية شديدة دون

أن يتدخل هو في مسارها الروحي.

فهل هذا يعني أن هـذا الكتـاب يحتـوي علـى الحيـاة الثقافيـة الحقيقـة لتلـك المرحلـة المضطربـة أخفاهـا المؤلــف وراء الأقنعــة والوجوه والمرايا التي شاع استعمالها في أدبنا الحديـث؟ واللافـت للنظر أننا عندمـا نقـرأ سـفره بكامله لانكتشـف ميولـه الفكريـة والسياسية مباشرة بل نحتاج إلى اسـتقراء دقيـق ولا نتوقـف عنـد جملة أو شعر شاعر مـن الشـعراء الذيـن اختـارهم أبطـالاً لكتابـه حتى أنه كان يلجـأ في بعـض الأحيـان إلى اختيـار مقطوعـة مـن قصيـدة تغنيهـا جارية مـن الجـواري دون الإشـارة إلى أن هـــذه المقطوعة هي من صلــب مرثيـة كتبهـا هـذا الشـاعر أو ذاك عـن شخصية كانت معروفـة في زمانهـا ولكـن المؤلـف حفاظـاً علـى السياق الفني لكتابه أو لدوافع سياسية لم يشر إلى هذا وفي بعـض الأحيان كان يشير، لأن الشخصية الممدوحة أو المرثية ينظر إليهـا الناس في كل العصور باحترام شديد أي أنها لا تشـكل إشـكالية سياسية أو اجتماعية بل أنها تلعب دوراً مهمـاً في غنـى الكتـاب الأدبي والروحي وتحبب القراء برمتهم مهمـا اختلفـت مذاهبهـم ومشاربهم السياسية والاجتماعية والثقافية.

المذكرات الأدبية

هناك مذكرات أدبية لم يبق منها شيء بخاصة إذا تحدث الكاتب فيها عن نفسه باعتباره محوراً للكون مهملاً التفصيلات والإضاءات لعصر بكامله .

فحركة البشر سواء كانوا داخل الأقفاص أوخارجها تتطلب نوعاً من الدقة لأن وصف الأحداث العابرة يكمن وراءها معنى آخر يتخطى الأزمنة والأمكنة وقد يكتب الكاتب صفحة أو عدة صفحات عن شخصية أدبية التقاها ويضيء نصف الحوادث داخل هذه الشخصية ونصف العبارات القليلة قد تغني عن مجلد كبير. ولا أريد هنا أن أعيد ما قاله أحد الملوك لمؤرخِه عندما جاءه بجمال محملة بعشرات المجلدات كتبها بناء على طلب الملك لكي يؤرخ فيها تاريخ البشرية وقال له الملك أنني في اخريات عمري ولا يكفي ما بقي لي من عمر لقراءة هذه الاسفارة الضخمة وطلب من المؤرخ أن يعود إلى صومعته ومدينته ويختصر ما كتبه فغاب المؤرخ وعاد بعد سنتين وكان يمشي أمام جمل يحمل سفراً ضخماً واحداً، فابتسم الملك وقال له: لماذا أجهدت نفسك مرة أخرى فقد وقعت في الهوى الأول نفسه .

فوقف المؤرخ حائراً ، فقال له الملك لقد وجدت أنا بنفسي

ما كنت قد طلبته منك، وما وجدته يمكن تلخيصه بعبارة ((إن البشر يولدون ويعيشون ويتعذبون ويموتون ويأتي بشر بعدهم ويلاقون المصير نفسه)).

وهذه الحادثة قد يقع فيها الكثيرون ممن يكتبون باللغة العربية، فمن خلال قراءتي لمذكرات الشاعر بابلو نيرودا ((أشهد أنني عشت)).

ومن خلال قراءتي لمذكرات الشاعر باسترناك ((ذكريات الصبا والشباب)) اكتشفت أن الحياة الحقيقية كامنة في سطور هذه المذكرات بالرغم من أنهما كانا يتحدثان عن نفسيهما.

فمن خلال السطور التي كتباها تسطع شمس تغطي أزمنة وأمكنة وعصوراً بكاملها حتى أنني رأيت وجوه البشر وابتساماتهم وضحكاتهم التي تحدثا عنها وأغلب ما قرأته في كتب السيرة العربية كاد يخلو من مغامرة العقل ومن محاولة البحث عن الجذور والتكوين وعن سر المغامرة الوجودية واللغوية التي يخوضها المفكر والشاعر لكي يصل إلى أعماق الأشياء البعيدة .

ولقد انحسرت هذه الظاهرة في كثير من بلدان العالم ولم يبق منها الا البقعة السوداء التي تغطي العالم الثالث بخيوله الهرمة وطواويسه الورقية وغربانه.

الشاعر والعنف في براثن السياسة

يلجأ السياسي إلى تحقيق مآربه إلى العنف للدفاع عن المكتسبات التي حققها أو حققتها ثورته وقد يلجأ إلى إراقة الدماء وإنشاء السجون وطرد ونفي وسجن الشعراء والحكماء والفلاسفة إلى المنافي وبخاصة الذين يرفضون أن يكونوا تروسا في مملكته السعيدة .

والسياسي في وضعه هذا يمثل حالة الديماغوجي الذي يجد المبررات الكافية لإقناع الآخرين حتى وأن تطلب الأمر استخدام القوة ويحاول نشر روح القطيع في أتباعه واعدا إياهم بفردوس وهمي قادم.

وقد وقع بعض الشعراء الكبار في براثن بعض هؤلاء السياسيين فدفعوا إلى الانتحار أو الجنون أو المنفى. وتاريخ الأدب العالمي حافل بمئات الأمثلة بالرغم من أن بعض هؤلاء الشعراء قد مدحوا السياسي أو الطاغية ولكن الأخير لم يكتف بمديحهم له بل أراد أن يجعلهم أتباعاً لا يفكرون ولا يحلمون ولا يكتبون الا ما شاء هو.

وتاريخ الاتحاد السوفييتي سابقاً في عهد ستالين يكتظ بأسماء عشرات الشعراء الذين اتهموا بتهم باطلة وأرسلوا إلى

السجون والمنافي .

فالشاعر بطبيعته يميل إلى التأمل والحلم بالمدينة الفاضلة التي فكر فيها أسلافه دون جدوى وهو ضد العنف والإرهاب وجعل الإنسان فريسة لمشيئة أفكار ونظريات وايديولوجيات قد تكون مثالية بالرغم من طلائها الخارجي المموه فالسياسي المحترف يكذب ويكذب باستمرار لأن غاياته قصيرة المدى ولأنه يصبح صنما تهلل الجماهير المسكينة البائسة بحمده.

و لم أجد طوال حياتي من خلال قراءاتي الى شاعر حقيقي كان داعية للعنف أو بوقا لطاغية، فالعنف يعني كما ذكرنا هو قتل الإنسان وقتل أحلامه وإيصاد الأبواب أمام رؤية المستقبل وحرية النقد وإبداء الرأي. فالعنف هو ضد إنسانية الإنسان وحقوقه مهما تقنع بأي قناع .

الشاعر والصحافة بين الرؤية والتراكمات

تحتاج الكتابة الصحفية إلى خبرة ومران معينين ذلك لأن هذا اللون من الكتابة يتطلب الخوض في أمور تهم الناس أو تتوجه الى قاعدة عريضة من القراء ولكن الكتابة الصحفية خطرة أحياناً خاصة اذا دارت في حلقة مفرغة لاتقدم للقاريء رؤية جديدة، فالتحليل الصحفي احياناً يعتمد على تحليل آخر سبقه أو تحليل مضاد له .

وهذا يعني أن الكاتب سيدور في حلقة مفرغة وهذا ما نلاحظه في الفضائيات العربية وأعمدة بعض الكتاب في الصحافة فعندما يحدث حدث ما أحيانا يفاجأ القارىء بأن أربعة أو أكثر من كتاب الصحيفة الواحدة قد كتبوا في الموضوع نفسه.

وعندما نقرأ ما كتبوه نكتشف أن تحليلاتهم تعتمد على تحليل آخر فالحلقة مستمرة وهذا لا يعني أن الكتابة الصحفية غير ذات جدوى فبعض الكتاب الصحفيين ليست لديهم مقدرة تضاهي مقدرة المبدع في اكتشاف المعنى في اللامعني أحياناً أو اللامعنى ومثل هذه الكتابات تغوص لا في الحدث وحده بل تتعداه إلى المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يدور الحدث في فلكها.

وفي الصحافة العربية يوجد أمثال هؤلاء ولكنهم قلة لأن الكتابة الصحفية تحتاج إلى اطلاع يومي ومستمر على الحدث ومواكبة الحدث في مصادره لأن الحدث الذي يقع في فرنسا مثلا أو إيطاليا تكون له معلومات وتأويلات تختلف عن الحدث نفسه إذا وقع في العالم العربي. ولهذا فإن الكاتب الصحفي الجيد يحتاج إلى رؤية كونية سياسية تستخلص الحدث من الفوضى التي تحيط به وتحجب حقيقته.

أما الشاعر فقد يعتني بجوهر الأشياء وبجوهر الحدث لا بالحدث نفسه. فالحدث شيء عابر أما جوهره فهو الباقي لأن الجوهر الذي يبقى هو الذي يكون التراكمات التي تعرف بعلم السياسة.

وكتابة الشاعر ضرورية احيانا لأنها ترتبط كما ذكرنا بجوهر الحدث دون التقيد بسروط الزمان والمكان التي يرتبط بها الكاتب الصحفي.

ذكريات عن الحرب العالمية الثانية

صور كثيرة لا تزال تسكن في ذاكرتي عن بغداد قبل أربعين عاما، صور سوداء شاحبة مريرة، ظلت معلقة في الرأس زمنا ثم انزوت في ركن سحيق من الذاكرة وراحت تشحب وتشحب حتى بدا لي وكأنها اختفت نهائيا، ولكن ما أن تثار بفعل حدث عابر أو ذكرى خاطفة حتى تضيء في سماء مخيلتي كالنجوم، ولا أدري لماذا يظل مشهد الجنود الانكليز والهنود والبولنديين دون سواه هو المشهد الذي يمد عنقه بين حين وأخر.

لقد سيطر الانكليز على كل شيء في البلاد حتى صار منظرهم ومنظر الجنود البولونيين والهنود مألوفا في الشوارع والمقاهي والمحلات العامة، واذكر جيدا إننا لم نكن نجد صعوبة كبيرة في التمييز بين الجندي الانكليزي والجندي البولوني مع ان اشكالهم لم تكن تختلف بالمرة، فالجندي الانكليزي متجهم الوجه، ثابت الخطى، لا يحاول أن يختلط بالناس أو يقترب منهم وكان كل واحد منهم يتقن تمثيل دور المحتل المتغطرس، القوي. أما الجنود البولونيون فقد كانوا مرحين طيبين على غاية كبيرة من الأدب والدماثة وكانوا يجلسون في المقاهي ويقفون أمام البيوت القديمة والآثار الفنية وكأنهم فنانون كبار، فعلا كان

منهم فنانون كبار استفاد منهم فنانونا الرواد، ويبدو لي أن تأثير الفنانين البولونيين القادمين مع جند الحلفاء ظل واضحا إلى فترة طويلة بعد الحرب على أكثر أعمال الفنانين البغداديين، خاصة أولئك الذين اختلطوا بهم وعملوا معهم وأذكر أن بعض هؤلاء الجنود الفنانين من رواد المقهى البرازيلية زينوا جدرانه برسوم جميلة جذابة.

لقد كنا ننظر إلى الانجليز نظرة شديدة العداء، وكانوا يعرفون ذلك، ولذلك فهم يتجنبون السكان حتى الأطفال منهم، أما البولونيون فقد كانت النظرة لهم تختلف خاصة وأنهم يحاولوا تمثيل ذلك الدور الذي يمثله الجندي الانكليزي المحتل، وأكثر ما كان يثير الشفقة هم الجنود الهنود، فهم يحاربون في أرض لاناقة لهم فيها ولا جمل، وكان وضعهم مؤسيا أشد من وضع الناس الذين يحاربون تحت نير الاحتلال.

لقد كان الجنود الانكليز يمارسون ضدهم أقسى أنواع الايذاء والعقاب والقسوة، وغالبا ما كنا نرى في الشوارع وعلى مرأى من الناس جميعا، أحد الجنود الهنود بين اثنين أو ثلاثة من جنود الانكليز وهم يضربونه ويركلونه بلا رحمة وفوق ذلك كانوا يتعرضون إلى الخديعة من قبل المحتالين، فتسرق نقودهم ويتعرضون لحوادث الابتزاز والاعتداء المستمرين.

في ذلك الوقت كان شعور الشباب العراقيين مختلفا عن شعور الصبيان المراهقين، ففي الوقت الذي كنا نراقب هذه الظواهر ولا تعدو ردود فعلنا ضرب الجنود الانكليز بالحجارة، كان الشباب يتآلفون جماعات جماعات ويؤدون دورهم الوطني بشكل منظم اربك المحتلين واقضّ مضاجعهم وكنا وقتها نسمع

باعتقال الكثيرين من الشباب وفتح السجون أمام المئات من المناضلين، وحين تصلنا هذه الأخبار يزداد عداؤنا وتتبلور قضية الوطن في أذهاننا حتى كنا ونحن في تلك السن نعرف أن وراء كثرة المواخير والبارات وانتشارها في بغداد هم الانكليز.

ودخلت مع جنود الاحتلال إضافة إلى تلك المظاهر الجديدة المشروبات الافرنجية والسيكاير بأنواعها وأذكر أنني في ذلك العمر كنت أدخن ((بايب)) وهو رخيص لم يكن يكلفني شيئا في تلك الفترة العصيبة وما زلت أذكر ((ذو الكفل عبد اللطيف)) وهو مدرس اللغة العربية ومن جماعة المفتي، وكان من المتحمسين للقضية العربية فكان يلقي كلمات حماسية في المناسبات والاحتفالات المدرسية، وحين عرف بقدراتي الأدبية دعاني إلى القاء بعض القصائد، كنت أشعر بخوف شديد وأنا أواجه جمهور الطلبة المحتشدين حولي. لقد لعب هذا المدرس دورا كبيرا في خلق جيل معاد للاستعمار وبث الحماسة القومية لدى الطلاب، وأذكر أنه هرب بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني إلى أوروبا. في تلك الأيام زارنا الحاج أمين الحسيني في متوسطة الرصافة. ومن المدرسين الذين مازلت أذكرهم في تلك الفترة هو الأستاذ ((ذو النون أيوب)) وكان يدرسنا الرياضيات وكان عصبيا وقاسيا ولكن قسوته لا تلبث أن تتبدد. كنا نخافه ونخشاه كثيرا، وبصراحة كان الكثيرون من الطلاب لا يحبونه، وحين نسمع أنه يكتب قصصا نضحك فهو لا يروق لنا فلا يمكن لكتاباته أن تروق لنا بل لم نتصور أنه يستطيع فعلا كتابة القصص.

موت نادية

عندما عدت من أسبانيا عام ١٩٩٠ سكنت أنا وزوجتي في قبو لا يدخله النور ولهذا كنا نترك مصابيح البيت مضاءة ليل نهار، وكانت ابنتي تتصل بي تلفونيا مرتين أو ثلاث في النهار، وتلومني لأنني عدت إلى بغداد ولم اذهب إلى زيارتها في أمريكا والإقامة معها. (كانت ابنتي متزوجة وتعيش هناك). وعندما احتل العراق الكويت أصبح الاتصال الهاتفي بين أمريكا وبغداد صعبا يتم أحيانا عن طريق دول أخرى والانتظار ساعات طويلة، في مطبخ بيتنا كان هناك فرخا دجاجة وكانا في أتم العافية، وذات يوم استيقظنا فوجدنا الفرخين قد ماتا بدون سبب، فانزعجت واستغربت من سبب موتهما. في الليل حاولت الاتصال بابنتي مرات عديدة دون جدوى وفي المرة السادسة أو السابعة استطعت أن أحصل على تلفون بيتها، واصابتني الدهشة لأن أحدا لم يرد علي فازداد قلقي، وفي الليلة التالية بعد نومي بقليل حلمت بأنني والصديق الدكتور محيي الدين صبحي كنا نسير في صحراء أو متاهة مكونة من أحجار بركانية مختلفة الحجم، وفجأة حصل انفجار يشبه الانفجار النووي أو الذري الذي رأيناه على شاشات السينما عندما ضربت هيروشيما

وناغازاكي بالقنابل الذرية.

صرخت بصديقي محيي الدين وطلبت منه أن يركض بأقصى ما يستطيع خوفا من أن يدفن تحت الحجارة الثقيلة التي ارتفعت إلى عنان السماء وكان يصرخ مثلي. واستمرت هذه الحالة ثواني قليلة ولكنها كانت أشبه بدهر طويل. وعندما تطايرت أكوام الحجارة الهائلة ولامست رؤوسنا وأوشكت أن تدفننا ونحن أحياء، استيقظت مذعورا من النوم فاكتشفت أن زوجتي لم تكن نائمة وكانت تبكي، وقالت يظهر أن هناك مصيبة قد حلت بنا، وحاولت تهدئتها دون جدوى وكنت أحس بالهلع أكثر منها، ولكني كنت اتظاهر باللامبالاة.

في اليوم التالي أتصل بنا أخي من عمان وقال إن ابنتي قد توفيت، وهكذا فقد تم الربط بين موت الفرخين وكارثة الانفجار التي كانت تحمل الشؤم والتي أعقبتها حرب الخليج وبين موت ابنتي. وبالرغم من أنني أعالج الأمور بواقعية وموضوعية شديدة ولكن الربط بين هذه الأحداث وبين الموت كان فكرة مرعبة أحسست بها منذ البداية فلقد كان الموت يحوّم بالهواء واكتشفت أن موت ابنتي سيحمل كارثة أكبر وهي كارثة حرب الخليج التي أودت بحياة مئات الألوف. وقبيل اندلاع حرب الخليج وبعد صعوبة بالغة استطعت أن أغادر العراق أنا وزوجتي إلى أمريكا لتشييع جثمان ابنتي ودفنها هناك. وبعد وصولنا وتشييعنا لها كانت ثاني شخص يدفن في مقابر المسلمين في مدينتها. وبعد أيام استعدت وعيي وتحررت من هول الصدمة التي حصلت لنا، وكنت أقلب بين أوراقي القليلة التي حملتها معي من بغداد فوجدت عنوان صديقي محيي الدين صبحي بين هذه

الأوراق فكتبت له رسالة وكان يعمل انذاك في مجلة ((الوحدة)) التي تصدر في المغرب وبعد أسابيع تلقيت جواب رسالتي منه فازداد استغرابي لأنه ذكر لي في الرسالة وقائع الحلم المزعج الذي وقع لنا بحذافيره كما رأيته أنا ولا أستطيع التعليق على ما جرى وربما رسالة صديقي تؤكد احساسي الأول الذي تم الربط فيه بين موت الفرخين وكارثة الانفجار ورسالة الصديق.

هل كان للاسكندر المقدوني وجود ؟

في الأسبوع الأول من تموز ١٩٨٥ تلقيت دعوة من المركز الأوروبي للثقافة في مدينة (دلفي) لحضور المؤتمر الثاني للدراسات العربية اليونانية حيث خصص المؤتمر يوما كاملا من أيامه للشعر العربي ودعي إلى المؤتمر بعض الشعراء العرب وهم أحمد عبد المعطي حجازي وأدونيس وفؤاد رفقة والناقد والأستاذ في جامعة ستراسبورغ الدكتور أسعد خير الله، كما حضره علماء وباحثون من هولندا وبريطانيا وايطاليا ومصر وقبرص، تحدثوا عن العلاقات العربية اليونانية منذ عهد الاسكندر المقدوني حتى العصر الحالي، وكان الاسكندر المقدوني محورا مهما لأغلب الدراسات. وأشارت باحثة اسبانية إلى علاقات عرب الاندلس التجارية مع اليونان بدليل العثور على كنوز في بعض مدن اسبانيا تحتوي على عملات ذهبية وفضية: اندلسية ويونانية.

فالحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صورا أخرى فتية جديدة، فكذلك الحضارة لا تستطيع البقاء مزعزعة الأركان إلا بتغيير موطنها ودمها، كما أشار أحد الباحثين في هذا المؤتمر ـ وهكذا فإن الحضارات

الشرقية (السومرية ـ الاكدية ـ المصرية ـ الفارسية ـ الهندية والصينية) لكي تتخذ لها صورا أخرى فتية جديدة قامت بتغيير موطنها ودمها، فكانت أرض الأغريق هي موطنها الجديد، فانتقلت إليها علوم الفلك والرياضيات والطب وعلم اللغة والأساطير في نموذجها البدائي، فما قصة (أوديب ملكا) إلا قصة (اخناتون) التي تم نقلها عن طريق التجار والبحارة والمغامرين الذين كانوا يجوبون شواطئ البحر الأبيض المتوسط بعد أن تم تحريرها وجعلها ملائمة للوعاء الجديد الذي وضعت فيه.

وما كانت (افروديت) إلا (عشتار) السومرية ـ البابلية التي خلبت ألباب وعقول الرحالة والفنانين طوال العصور الغابرة، فهي الأم والربة والمعشوقة والعذراء التي تستعيد عذريتها كلما فقدتها، حسب معتقدات شعوب الهلال الخصيب الموغلة في القدم:

أحس بالعصارة الحية تسري في عروق الأرض وبالظلام الحي.
ينبض في نواة كل شيء.
وبالحضارة التي تقوضت واستسلمت للموت.

من قصيدة (موت الاسكندر المقدوني)

ديوان (الموت في الحياة)

- ٢ -

زرت اليونان مرتين في معراجين شعريين قبل أن أزورها في الواقع، ففي المعراج الأول، أذكر أنني كنت عائدا من برلين إلى بغداد مرورا بـ (اثينا) وكان يجلس بجانبي في الطائرة رجل كان يقلب جريدة (اللوموند) فاستئذنت منه لأدخن، فقال: تفضل فأنا أحب رائحة الدخان ثم عاد يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ قلت: إلى بغداد. قال: هل أنت مدرس؟ قلت: يشرفني أن أكون مدرسا ولكنني شاعر، عند ذلك تنهد ووضع الجريدة جانبا، وبدأ يحدثني عن العذابات التي يكابدها الشعراء والكتاب والفنانون والعمال في اليونان على يد الانقلابين العسكر، وأنهم يرسلون إلى المنافي في الجزر اليونانية النائية، ولا يسمح لذويهم بزيارتهم.

عند وصول الطائرة إلى مطار أثينا، صعد ضابط قبل نزول الركاب وتوجه إلى جاري ووضع القيود في يديه ومضى قبل أن أودعه أو يودعني، وعندما عدت إلى بغداد ولدت قصيدة (سلاما أثينا) المنشورة في ديوان (عشرون قصيدة من برلين).

لعل في (الاولمب) لا تزال
آلهة الاغريق تستجدي
عقيم البرق في الجبال

طعامها النبيذ والخبز وآلام
الملايين من الرجال
قلت: سلاما وبكى قلبي
وكان الفجر في الاطلال
يضيء وجه العالم
الجديد
وجه شاعر يحطم الاغلال

أما المعراج الشعري الثاني، فكان في (القصيدة الاغريقية) المنشورة في ديوان (قمر شيراز).

بعد سنوات، كنت في باريس، فاقترح عليّ صديق أن نذهب إلى مطعم يوناني يقع في شارع ضيق متفرع من (السان ميشيل) ففوجئت برجل في صحبة امرأة، يتصدر احدى الموائد، وكان ينظر إلي بين الحين والآخر وقبل أن أغادر المطعم اخبرني العامل أن الرجل الذي يجلس قبالتك قد دفع الحساب، فهل تعرفه؟ إنه الموسيقي العظيم (ثيودراكس) مؤلف موسيقى فيلم (زوربا) اليوناني. تقدمت إليه شاكرا، فقال: كنت اراقبك وأنت تدخن بنهم، فتذكرت أننا التقينا في الطائرة المتجهة من برلين إلى بغداد مرورا بـ (أثينا) وقال: لقد أطلق سراحي خوفا من قيام ضجة عالمية، فهل تعدني بزيارة، قلت: أعدك، ولكني نسيت أن أسأله عن عنوانه.

(كنا أربعة: أنا والموسيقي الأعمى
ودليلي

ومغني آلهة الاولمب الحكماء).

- ٣ -

كانت جدتي تحدثني بأن جدتها كانت تحدثها كيف أنها كانت تربط أصابع اخوتها بخيوط من حرير لكيلا يتعدوا عن البيت أو يضلوا طريق العودة وكيف أن الأخوة كانوا يعودون سعداء إلى البيت وعيونهم مكتحلة بقوس قزح السماء بعد المطر، وبألوان الفصول الأربعة وبألوان الغسق والغبش والسحر، وبحكايات وقصص لا يعرف أحد مصدرها. وتحدثني عن رحالة غرباء يحملون أسماء غريبة، ويتحدثون بلغة غامضة هي أشبه ما تكون بهمسات المطر قبل أن ينهمر مدراراً.

وقد عرفت فيما بعد أن هذه الحكايات والقصص ما هي إلا حكايات وقصص اغريقية ذابت في الموروث الشعبي الحكائي المحلي وغاب مصدرها، وكان من أبطالها: الاسكندر المقدوني ويوليس وسواهما. هناك رواية تقول ان الاسكندر كان تلميذا لأرسطو في بداياته، ولكنه لم يلبث أن ترك الفلسفة جانبا وتوجه نحو الفتوحات، فغزا بلاد ما بين النهرين وفارس والهند حتى سقط مغشيا عليه أمام نور العالم الأبيض والليل الذي يليه ألف ليل، فعاد إلى بابل مصابا بحمى غامضة جعلته يهذي حتى مات، وقد أشارت بعض الروايات الشعبية أن الخضر عليه السلام

صحب الاسكندر في رحلاته.

وحكاية جدتي عن بحث الاسكندر عن ينبوع الحياة، تذكرنا بـ (كلكامش) وبحثه عن عشبة الخلود، بعد أن أضيف إليها إطار جديد، يتناسب مع شخصية الاسكندر، هذا وبالرغم من وقوع اليونان في قارة أوروبا، ولكنها بلد شرقي بلحمها ودمها وثقافتها، فالموروث الشعبي الابداعي الاغريقي والشرقي والعربي ذاب في الموروث المحلي.

والذي يتجول اليوم في هذه البلاد العريقة التي سطعت فيها ذات يوم شمس الشرق، لا يجد إلا السواحل المقفرة، هذه السواحل التي انطلق منها البحارة والمغامرون والفنانون والتجار حاملين معهم سر موت الحضارات وانبعاثها، واهدت البشرية الفلسفة والمعرفة والشعر والفن، ولم يبق لديها إلا الصخور النخرة والقرى الفقيرة المأهولة بالعجائز والأطفال، كأن اوروبا قد سلبتهم كل شيء واهدت إليهم الفقر والانقلابات العسكرية والنزاعات الاقليمية.

ولكن الشعر اليوناني المعاصر بما حقق من انجازات باهرة استطاع أن يعيد التوازن الروحي لهذا الشعب، وأن يضع اليونان في طليعة البلدان التي أضافت إلى التراث الروحي العالمي الشيء الكثير في مواجهة موت أوروبا التي تحاول نقل موتها إلى بلدان العالم الثالث حسب تعبير المفكر (دريدا).

- ٤ -

عندما غزا الاسكندر بلاد فارس والهند وتوغل في المتاهات العجيبة المسكونة بالسحر والغرابة، توقف ذات يوم عند نبع ماء. وقبل أن يجن الليل ذهب طباخ الاسكندر إلى الينبوع لكي يعد طعام العشاء، وعندما وضع بعض السمكات في ماء الينبوع دبت فيها الحياة، فاضطرب الطباخ وشعر بالخوف، وتذكر أن الاسكندر كان يبحث عن هذا الينبوع منذ أن توغل في هذه المتاهة، فشرب الطباخ من مائه وعاد إلى معسكر الجيش دون أن يخبر أحدا بما جرى له قرب الينبوع.

وذات ليلة أصيب الاسكندر بالارق وطلب من اتباعه أن يحكوا له عن حادث غريب حدث لهم. فلما جاء دور الطباخ، تحدث عما جرى له أثناء ذهابه للينبوع لكي يعد طعام العشاء وقبل أن يكمل حديثه، وقف الاسكندر غاضبا مضطربا، وطلب من الطباخ أن يصحبه إلى الينبوع، وعندما ذهبا، وجد أن الينبوع قد اختفى وابتلعته الرمال المتحركة، ولكن الاسكندر لم ييأس من العثور على الينبوع، فطلب من جيوشه أن تتهيأ للعودة. وهكذا ظل يبحث عن الينبوع في المتاهات العجيبة المسكونة بالسحر والغرابة دون جدوى. وعندما اسقط في يده،

فكر في ايقاع عقوبة قاسية بذلك الطباخ الذي اخفى عنه السر. وعاد يفكر أية عقوبة يمكن أن يوقعها به، وهو لن يموت بعد أن شرب من ينبوع الحياة الذي يضمن الخلود لمن يشرب منه وبعد لحظات هداه تفكيره إلى عقوبة لا تخطر على بال أحد وهي تقييد الطباخ من رجليه ويديه ورميه في قاع نهر عميق، وهكذا سيظل في قاع النهر لا يحيا ولا يموت.

وأضافت جدتي من عندها للحكاية: أن احد الرحالة مرّ بعد الف عام بالنهر فوجده قد جف، وعندما وقف حائرا سمع انات وصيحات لم يعرف مصدرها.

ولما روى ما جرى له، قيل له: إنها انات وصيحات الريح التي هزمت جيوش الاسكندر الكبير.

وعندما عاد الرحالة إلى بلده كتب في دفتر يومياته: أنه لم ير الطباخ و لم يعثر له على اثر، ولكنه سمع صيحاته تنطلق من مكان ما وهذا يعني أنه لا يزال حيا يرزق.

ولكنه لم ير للاسكندر اثرا، بالرغم من عشرات المدن التي سُميت باسمه، وأكاليل الغار التي خلعت عليه.

فهل كان للاسكندر المقدوني وجود؟.

٢ - رجـــال



الجواهـــري

في صباح يوم ١٤ كانون الأول عام ١٩٤٤ رأيت الجواهــري بأم عيني لأول مرة واستمعت إليه وسحرت بانشاده في الاحتفال بمرور رفات جمال الدين الافغاني في العراق في طريقه إلى افغانستان مسقط رأسه في الحضرة الكيلانية في محلة باب الشيخ (وهي المحلة التي ولدت فيها) وكان في كامل عنفوانه وشبابه وطريقة انشاده وروعة قصيدته بصوته النجفي المحبب وسحر الحاضرين وخلب ألبابهم فراحوا يهللون ويستعيدون ويتنهدون. وعندما انتهى من إنشاده ساد هدوء عميق سبق عاصفة توديعية وهو يغادر مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني فقد تجمهر معظم أهالي باب الشيخ فخورين بابن النجف الاشرف الذي زار ضريح شيخهم وانشدهم ما انشد حتى أنهم اهملوا الكاتب المعروف إبراهيم المازني أحد المشاركين في الحفل، وكان المازني يعمل آنذاك استاذا للادب العربي في بغداد.

واذكر أن الجواهري عندما نشر قصيدته (اطل مكثا) في جريدة الرأي العام وهو مؤسسها وصاحبها نفدت الجريدة بعد ساعات قليلة من صدورها. وبحثت عنها في كل مكان ولكنني لم أجدها، وعندما هدني التعب دلفت إلى مقهى شعبي وجلست

بجوار رجل كان يبدو عليه الحزن والوجوم وإذا بي أجد (الرأي العام) بجانبه، فاستعرتها منه وبدأت بقراءة القصيدة، وعندما انتهيت من القراءة نظرت إلى حيث كان يجلس الرجل فلم أجده فشعرت بفرح عميق لأن الجريدة أصبحت ملكي.

وعندما نشرت المقصورة وهي أجمل مقصورة في الشعر العربي تدافع الناس وكادوا يحتربون من أجل الحصول على نسخة من الجريدة.

وهكذا كان شأن القراء في التعامل مع شعر الجواهري فلقد كان لهم الزاد والماء والضوء في تلك السنوات العجاف.

وفي بداية الخمسينات زار العراق الشاعر اللبناني المعروف أمين نخلة وأقام له الأديب والشاعر العراقي حارث طه الراوي حفل تكريم في بيته وكان الأستاذ الجواهري في طليعة المدعوين فأتيحت لي فرصة الحديث معه لأول مرة فشعرت بسعادة غامرة وتصورت معه ومازلت محتفظا بالصورة.

والتقيت به بعد ذلك عشرات المرات وخاصة في اتحاد الأدباء العراقيين الذي كان الجواهري رئيسا له وكنت أنا أحد أعضاء الهيئة الإدارية، ثم كرت مسبحة الزمن فتفرق العراقيون من جديد وأصبحوا يتامى ولاجئين في كل مكان كما هي الحال الآن. وفي سنوات الترحال والشتات العراقي الأول كنت التقي به في براغ كلما كنت ازورها قادما من موسكو حيث محل إقامتي، كنا نلتقي على قارعة الطريق وفي مقاهي الشارع وكان يحب الجلوس فيها إذ تتيح له مشاهدة كل ما يجري في الشارع الرئيسي في مدينة براغ. وكان لا يحب السهر كثيرا خارج بيته ولهذا فقد كان يعود إلى البيت في الساعة التاسعة. أما إذا كانت

هناك دعوة فيبقى مترقبا هل أن الدعوة تـروق لـه أو لا وأحيانـا يظهر عليه القلق كمن يريد أن يكتب قصيدة حتى يعطي لنفسه حجة الهروب مـن المأزق الـذي وقـع فيـه فيعـود إلى بيتـه هادئـا مطمئنا.

وعندمـا سـقط حكـم عبـد الكريـم قاسـم في عـــام ١٩٦٣ تشكلت لجنة للدفاع عن الشعب العراقي كان مقرها براغ وكان الجواهري رئيسا لها وكنت أنا والدكتور صلاح خـالص وفيصـل السـامر وسـواهما مـن الكتـــاب والـــوزراء العراقيـــين الســـابقين والسفراء، أعضاء فيها.

وحين بدأت هذه اللجنة تتضعضع نتيجة الظـروف المختلفـة تركـــت موســـكو وســـافرت إلى القـــاهرة واذكـــر أن الأســـتاذ الجواهري اتصل بي تلفونيا مـن بـراغ ورجـاني أن اتريـث حتـى يقضي الله أمـرا كـان مفعـولا، ولكنـني كنـت اشـعر أن قصـائد جديدة وعوالم لم أعرفها بعـد تنتظرنـي، وشـعرت أن لا جـدوى من هذه اللجنة التي فضحت النظام الجديد ولكنها لم تقـدم شـيئا جديدا لأنها بعيدة جدا عـن الوطـن وصوتهـا لم يسـمع كمـا أن البلدان التي كان يقيم فيها أعضاء هذه اللجنة كـانت لهـا مصـالح مع السلطة الحاكمة في العراق ولهذا فقد طلبت هذه البلـدان مـن اللجنة بطريقة غير رسمية الحد مـن نشـاطها. ثـم عـدت للالتقـا بالأستاذ الجواهري في السبعينات حيث عاد اتحاد الأدباء العراقيين إلى الألـتـئام وكان أعضاء الهيئة الإدارية يمثلون القوى المنتظمة في الجبهة الوطنية بشكل صـوري كاريكاتـيري لأن السـلطة كـانت تقبـض علـى ناصيـة كـل شـيء بيـد مـن حديـد وكـانت مولعـة بالفاترينات أكثر من اهتمامها بالحقيقة.

ثم رحل الجواهري من جديد و لم اعد أراه إلى أن دعيت إلى حفل منحه وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة الـذي منح تكريما له وللشعر في عام ١٩٩٥، وقد القيت كلمة في هـذه المناسبة ثـم غـادرت دمشـق. وفي عـام ١٩٩٦زرت سـورية مـن جديد بدعوة من وزارة الثقافة السورية لحضور مهرجان المحبـة في اللاذقية فزرت الجواهري من جديد وسـهرنا ليلـة جميلـة في بيتـه سجل وقائعها الشاعر العراقي المقيم في دمشق محمـد مظلـوم وفي ذلك اللقاء أهداني مذكراته التي تقع في جزءيـن وعندمـا أمسـك بالجزء الأول لكي يكتب الإهـداء وقـع القلـم مـن يـده وكـانت ترتجـف ولهـذا فلقـد اقـترحت علـى زوج ابنتـه الفنـان صبـاح المندلاوي أن يكتب الإهداء ويقـوم الأستاذ الجواهـري بـالتوقيع فقط.

وفي زيارتي في ربيـع العـام ١٩٩٧ كنـت أهـم بزيارتـه وإذا بأسرته تخبرني أنه نقـل إلى المستشـفى فذهبـت في المسـاء لزيارتـه وقضيت وقتا قصيرا معه ورأيـت أن سمعـه وبصـره في هـذه المـرة كان أفضل من المرة السابقة فشعرت بالاطمئنان وقلت أنه يبارح المستشفى غدا أو بعد غد وهكذا كان.

لقائي مع نجيب محفوظ في مقهى ((ريش))

في النصف الثاني من الخمسينات كان الكاتب الراحل يوسف السباعي يصدر مجلة ((الرسالة الجديدة)) تيمنا باسم ((الرسالة)) التي كان يصدرها الكاتب الكبير أحمد حسن الزيات، وكانت آنذاك قد توقفت عن الصدور، وقد أجرى معي أحد كتاب هذه المجلة حواراً فسألني عن رأيي بالأستاذ نجيب محفوظ فقلت عنه أنه لا يقل موهبة ومكانة عن همنغواي أو شتاينبك أو ارسكين كالدويل، ولكن هؤلاء لكونهم أمريكيين فهم يملأون الدنيا بأسمائهم، وهذا ما أثار قضية وهي أن الدول الكبرى تمتلك وسائل لإيصال أدبائها حتى المغمورين منهم إلى أقصى بقاع العالم بعكس الدول الصغيرة التي لا تملك مثل هذه الوسائل.

كان الأستاذ نجيب محفوظ في تلك السنوات يتردد على أماكن كثيرة وذات يوم التقيت به كان ضمن ثلة من الأصدقاء ولهذا فإن اللقاء كان عابرا، وعندما اقمت في القاهرة في عام ١٩٦٤ وكان الأستاذ نجيب يتردد على مقهى ((ريش)) التقيت به من جديد وكان لقاء العارفين، وكنت أجلس في الكثير من الاحايين ضمن المعجبين الذين كانوا يحيطون ولا أتدخل في

حوارهم معه إلا قليلا وكنت أكتفي بالاستماع.

وذات يوم اشتريت من مكتبة مدبولي الكائنة في ميدان سليمان باشا روايته ((الشحاذ)) وأخذتها معي إلى المقهى وعندما رآني اتأبط الرواية قال لي: لماذا اشتريتها فقد كان بامكاني أن أهديها إليك، فقلت له أن أصدقاءك لا حصر لهم ولو أردت أن تهدي كلا منهم نسخة لاحتجت إلى كل النسخ المطبوعة، فابتسم وقال لي إذن فلتسمح لي بكتابة اهداء ولا أريد أن أقول ماذا كتب فيه فمعظم الأدباء الذين تهدى اليهم كتب من قبل كتاب كبار أمثال نجيب محفوظ بديباجة الاهداء ينشرونها على الملأ.

بعد قراءتي لرواية الشحاذ تولدت لدي افكار كثيرة حول الرواية وبخاصة عن مضمونها وبطلها، وقد كتب عنها في ذلك الوقت الأستاذ أحمد عباس صالح مستعينا بالكثير من كتابات المتصوف والمفكر الروسي برديائيف، وحاولت عدة مرات أن أبوح للأستاذ نجيب بما تركته الرواية في نفسي، ولكنني كنت اتردد لأنني لم أكن ناقدا، وذات يوم وجدته يجلس وحده لأنه جاء في وقت مبكر إلى المقهى قلت له إنني قرأت الرواية ولدي بعض الأفكار عنها، ولكنها ليست مهمة، فاستحلفني أن أذكر له ماهية هذه الأفكار.

ولأنني وعدت الأستاذ نجيب في ذلك الوقت أن لا اكتب هذه الأفكار ولا أبوح بها، فأنني لا أكتبها وخوفاً من أن يظن القارئ إنها ليست في صالح الأستاذ نجيب أقول أنها لصالحه، ولكنها تعبر عن وجهة نظر مختلفة عما كان يكتب عنها آنذاك. وظلت هذه العلاقة تتوطد سنة بعد اخرى وقبيل نيل الأستاذ

محفوظ جائزة نوبل أجرت مجلة ((العربي)) التي تصدر في الكويت حوارا معي وسألني المحاور عمن يستحق جائزة نوبل من العرب فقلت إنه نجيب محفوظ أولا وثانيا وثالثا، وقد اعادت المجلة هذا الرأي مفتخرة بعد أن نال الجائزة بشهرين.

وقبيل نيله الجائزة كتب الدكتور لويس عوض صفحة كاملة في جريدة ((الأهرام)) حول جائزة نوبل وعمن يستحقونها فذكر اسم الأستاذ نجيب محفوظ واسمي واسم أدونيس ولكنه عاد فاستبعد اسمي واسم أدونيس بحجة أنني يساري، وان أدونيس كان يعتنق بعض الافكار القريبة إلى الفاشية. وخلص إلى القول أن الأستاذ نجيب محفوظ هو الذي يستحق الجائزة ذاكرا الحجج التي تدعم رأيه.

وعشية إعلان نبأ فوز الأستاذ نجيب محفوظ بالجائزة صرح أول ما صرح وقال إن البياتي يستحق جائزة نوبل أيضا. وفي تصريحات لاحقة ذكر أسماء اخرى بعد اسمي وكانت معظم الأسماء التي ذكرها هي لروائين عرب.

ولدى تكريمه من قبل الاكاديمية السويدية ومن رئاسة الجمهورية المصرية دعيت إلى هذه المناسبة وتحدثت عنه في العديد من الندوات واللقاءات التي تمت احتفالا بهذه المناسبة العظيمة.

وفي عام ١٩٩٥زرت القاهرة بدعوة من وزارة الثقافة المصرية لحضور معرض الكتاب الدولي، فما كان مني إلا أن أزوره في مكتبه في ((الأهرام))، وتصورنا معا صورا عديدة ثم ودعته لأنني سافرت بعد هذا اللقاء.

في ديوان ((بستان عائشة)) هناك قصيدة مهداة إليه أشير إلى روايته ((ثرثرة فوق النيل))، وعندما أصدرت جريدة ((اخبار

الأدب)) عددا خاصا في القاهرة كتبت فيها كلمة بينت فيها موقع الأستاذ نجيب محفوظ في دورة الفصول والسنوات والتي لعب فيها دورا مهما وكان مؤشرا كبيرا للابداع الدائم.

وهذه الكلمة التي كتبتها أوحت لي بقصيدة أخرى نشرت أيضا في ((أخبار الأدب)) صورت فيها كيف أن الأستاذ نجيب محفوظ كان الواحد في الكل والكل في الواحد في العصر الذهبي للثقافة العربية الذي شعّ على مختلف الاقطار العربية.

احسان عباس

مابين عامي ١٩٥٠- ١٩٥٣ كنت انشر قصائدي الجديدة في مجلة (الثقافة) القاهرية ومجلة (الأديب) اللبنانية، وأنا مقيم في بغداد. ويظهر أن هذه القصائد قد استهوت الدكتور احسان عباس، فكتب إلى احد اصدقائه العرب (الذي كان استاذا في احدى المدارس العراقية) ليتصل بي، لتزويده بكل ما كتبه من جديد، سواء ما نشر أو لم ينشر، وكان الدكتور احسان، آنذاك محاضرا في جامعة الخرطوم، وقد لبيت طلب ذلك الأستاذ من دون أن أدري بما خبأ الغيب، وجاء عام ١٩٥٤ وصدرت اشعاري التي كتبتها في تلك الحقبة في ديوان (اباريق مهشمة) في بغداد وكانت النسخ التي طبعت (١٥) ألف نسخة. نفدت في أيام قليلة. وفي عشية دخول العراق في حلف بغداد فصلت من وظيفتي، فأزمعت الرحيل إلى بيروت، وكان ذلك في عام ١٩٥٥. وذات يوم وأنا أزور صديقي السيد محمود صفي الدين مدير وصاحب (دار بيروت) استقبلني بحفاوة، وقال: أن مخطوطة كتاب للدكتور احسان عباس قد وصلته، يتناول فيها بالدراسة (اباريق مهشمة) مقترحا أن تصدر الدراسة والطبعة الثانية من الديوان الذي لم تصل طبعته الأولى، الا نسخ قليلة إلى القراء

العرب. وقد صدرت دراسة الدكتور احسان عباس التي كان عنوانها (عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث) والطبعة الثانية من الديوان في العام نفسه، فأثارت الدراسة والديوان عاصفة عاتية في العالم العربي، حتى أن الكثير من النقاد اعتبروا أن (اباريق مهشمة) هو أول ديوان يمثل الحداثة في الشعر العربي، واعتبروا دراسة الدكتور احسان عباس دراسة رائدة للشعر العربي الحديث، فاستقبلت استقبالا منقطع النظير من قبل القراء والنقاد والأساتذة الاكاديميين، وهي لم تكن دراسة رائدة، وحسب، بل كانت دراسة للشعر العربي قاطبة في ذلك الوقت.

وفي عام ١٩٦٦أصدرت مجلة (الآداب) عددا خاصا عن الشعر العربي الحديث، فعاد الدكتور احسان وكتب دراسة أخرى تصدرت هذا العدد الخاص بعنوان (الصورة الأخرى في شعر عبد الوهاب البياتي) وقد استكمل فيها دراسة ما صدر بعد (اباريق مهشمة) وتوقف عند ديوان (الذي يأتي ولا يأتي) وكان ذلك الديوان هو آخر ما صدر لي في ذلك الوقت.

كان هذا قد تم دون أن التقي به. ومرت السنوات وأنا أمني نفسي باللقاء به. وذات يوم وأنا أجلس قبالة الفنان عبد الحليم حافظ والفنان كمال الطويل في فندق سمير أميس في القاهرة عام ١٩٦٨فوجئت بمن يقول لي: يا عبد الوهاب ها أنت ذا وها هو صديقك الكبير وناقدك الذي لا تعرفه شخصيا، فالتفت واذ بي وجها لوجه مع الدكتور احسان عباس، فتصافحنا وتعانقنا. وكان محدثي هو الدكتور محمد يوسف النجم.

منذ تلك اللحظة أصبحت صديقا حميما لهذا الرجل العظيم الذي اجتمعت فيه صفة الحلم والتواضع، فهو منجد وموسوعة

ودائرة معارف للتراث والمعاصرة والحداثة، بجانب عمقه وتعمقه بالثقافة الأوروبية الحقة: باحثا ودارسا ومترجما. وكنت كلما التقي به سواء، كان ذلك، في القاهرة أو في بيروت أو في الولايات المتحدة أو بغداد أو عمان أحس احساسا عميقا بأن ثقافتنا العربية بخير، ما دامت قد انجبت مثل هذا المعلم والطود الشامخ، الذي يذكرني مرآه بعصور الثقافة الذهبية وبالإعلام العرب الكبار في كافة عصور التنوير. وأنا مدين لهذا العالم الكبير الذي كان لكتاباته عني فعل السحر أو فعل الحجاب بلغة الصوفية، فلقد منحتني وأنا في مقتبل العمر وفي بداية المضمار قوة هائلة لتحدي المستحيل ولمواصلة رحلتي الشعرية بعنفوان الشعر وعظمته بالرغم من حسد الحساد وكيد الكائدين.

بلند الحيدري

- ١ -

كانت صداقتي بالراحل الكبير صداقة مثالية لم تستطع الأيام أن تثلمها وكانت هذه الصداقة قد بدأت في منتصف الأربعينات واستمرت حتى مطلع ١٩٩٦، وكان أول لقاء تم بيننا في مقهى ياسين في شارع أبي نواس ببغداد إذ أنه مر ذات يوم وحيّاني فرددت له التحية ودعوته إلى الجلوس وبادرني بالقول: سمعت بأنك تكتب الشعر - من بعض أصدقائي - وقد سعيت إلى لقائك وها نحن قد التقينا.

وبعد فترة زمنية قرأ علي احدى قصائده الجديدة فأعجبت بها أيما اعجاب وأطريتها فسر وقال لي إننا يجب أن نلتقي باستمرار وعيّن لي المقاهي والأماكن التي كان يتردد عليها.

في تلك السنوات كان بلند بعيدا عن السياسية و لم ينخرط في العمل السياسي إلا بعد عام ١٩٥٨.

وعندما صدر ديوانه ((أغاني المدينة الميتة)) أهداني نسخة منه وكان قد طبع طباعة انيقة قل أن تجد لها مثيلا في العراق في تلك السنوات إذ كان اخراج الكتب وطبعها ضعيفا، وكتبت

كلمة عن الديوان نشرت في جريدة الأهالي التي كان يرأس تحريرها الزعيم الوطني الكبير كامل الجادرجي ـ رئيس الحزب الوطني الديمقراطي ـ ازداد بلند تعلقا بي حتى أن هذه الكلمة قد أعاد نشرها في معظم كتبه التي صدرت فيما بعد، وكنا في تلك السنوات ننشر معا في مجلة الأديب اللبنانية التي كان يرأس تحريرها الشاعر اللبناني الراحل البير أديب، وكانت مجلة الأديب أهم مجلة عربية تبشر بالحداثة الشعرية وتنادي بها إلى جانب الشعر العمودي الجيد وكانت تنشر المقالات الأدبية والترجمات.

وفي سنوات بلند الشعرية الأولى فكر بفتح مقهى أدبي وقد نفذ فكرته فعلا بمساعدة لفيف من أصدقائه ولكن عيون الشرطة كانت تتلصص وتراقب هذا المقهى ليل نهار، ثم جاء من ينصح بلند بإغلاق المقهى لأنه يضايق السلطات التي كانت تعتقد أنه وكر لليساريين والمتمردين على القانون فأغلق المقهى وتفرق الأصدقاء، وبعد ذلك أصبحنا نلتقي في المقهى البرازيلي التي كان يتردد عليها الفنان الراحل الكبير جواد سليم والشاعر الراحل حسين مردان والفنان الراحل الكبير فائق حسن والكاتب القصصي عبد الملك نوري والكاتب الروائي فؤاد التكرلي وسواهم من الرسامين والأدباء، ثم انضم إلى هذه الحلقة الشاعر كاظم السماوي.

وكنا نقرأ في جلساتنا بعض قصائدنا الجديدة ونتناولها بالنقد وعندما عينت مدرسا في مدينة الرمادي بعد تخرجي في دار المعلمين العالية أصبحنا نتبادل الرسائل بالرغم من أني كنت أذهب إلى بغداد كل أسبوع في عطلة الخميس والجمعة وعندما تم التحول في العراق ١٩٥٨تركت العراق وكان بلند لا يزال

على موقفه في الابتعاد عن السياسة، ولكنني علمت وأنا في موسكو أنه قد اختار اليسار العراقي ثم عين رئيسا لتحرير الأديب المعاصر إلى أن حصل انقلاب ١٩٦٣ الدموي فاعتقل بلند بتهمة انتمائه إلى اليسار وعندما اطلق سراحه غادر العراق لكي يعمل في الصحافة اللبنانية في بيروت، ولم التق به في تلك السنوات ولكني كنت أتسقط اخباره من خلال الصحف والأصدقاء وكنت أرسل له تحياتي معهم.

- ٢ -

وفي عام ١٩٧٢عدت التقي به في بغداد لكن لقاءاتنا كانت قصيرة لأنه عمل فيما بعد في مجلة (آفاق عربية)، ثم غادرت العراق مرة أخرى في عام ١٩٧٩وفي مهرجان ابداع في القاهرة في الثمانينيات التقينا من جديد فاكتشفت في بلند موهبة جديدة بجانب موهبته الشعرية وهي موهبة التصوير الفوتغرافي فقام بصوير عدد كبير من الشخصيات الثقافية مثل الدكتور لويس عوض ود. عز الدين إسماعيل ود. صلاح فضل. وقضينا أياما ممتعة نتحدث فيها عن الماضي الذي انقضى واكتشفت أن بلند كان مهتما بفقه اللغة ويراجع المعجمات التي تهتم به وقد ظهر ذلك في كتاباته النثرية فيما بعد إذ أن أسلوبه النثري أسلوب جميل يتميز بالسهولة وقصر الفقرات والدلالة الواضحة.

ثم افترقنا من جديد فذهب هو إلى لندن وعدت أنا إلى مدريد حيث كنت أقيم، وفي عام ١٩٩٥التقينا من جديد في مهرجان بعلبك الذي أقيم تكريما للشاعر خليل مطران، حيث ألقيت قصيدتي (التنين) وألقى هو قصيدة عمودية في تكريم الشاعر المحتفى بذكراه، وقضينا أياما جميلة في الفندق الذي أقمنا فيه في شارع الحمراء في بيروت بصحبة الشاعر أحمد عبد المعطي

حجازي والياس لحود وسواهما، ثم افترقنا من جديد وعاد هو إلى لندن وعدت أنا إلى عمان حيث أقيم.

أما آخر لقاء تم بيننا فكان في عمان في مطلع العام ١٩٩٦ حيث حضر الندوة التي أقامها منتدى الفكر العربي الذي يرأسه الأمير الحسن بن طلال، وقضينا أنا وهو ليلة ممتعة في بيت أحد الأصدقاء العراقيين وأتاح لنا هذا اللقاء بأصدقاء الشباب الأول القادمين من فرنسا وسويسرا والقاهرة. وفي تلك الليلة قدمت له ديواني ((المراثي)) الذي طلبه هاتفيا من لندن وكنت قد أرجأت ارساله إلى أن يحضر إلى عمان.

كان بلند يحب المزاح والنكتة ويجيدهما كما كان لطيف المعشر أحبه جميع اصدقائه وكما ذكرت فإن بداياته الشعرية كانت بالنسبة لي وبالنسبة للشعر الحديث أفضل من بدايات السياب ونازك الملائكة، إذ أن بدايات السياب ونازك كانت تتعثر بكثير من المؤثرات الكلاسيكية والرومانسية لكن بلند انتقل من القصيدة العمودية التي كتبها إلى القصيدة الحديثة واجاد كتابتها دون أن تؤثر عليه بداياته.

كانت بدايات بلند تقارب الفضاء الشعري للياس أبي شبكة وعمر أبي ريشة ومحمود حسن إسماعيل وغيرهم ولكنه لم يقترب من مدرسة علي محمود طه وإبراهيم ناجي، وكان أشد ما يحز في نفسه أن النقاد كانوا لا يضعون اسمه ضمن الرواد الثلاثة الذين تتكرر اسماؤهم في كل الأدبيات والكتب، ولكن هذا لا يضيره لأني اعتبره رائدا مهما من رواد الشعر العراقي والعربي، وقد حقق إلى جانب شعره انجازات نثرية مهمة تتضمن ذكرياته عن أصدقاء طفولته وشبابه وخاصة العراقيين منهم، والغريب أن

السياب وبلند وأنا وإسماعيل الشيخلي وخالد الرحال وجواد سليم قد ولدنا في عام واحد هو ١٩٢٦.

والحديث عن شاعرنا الراحل الكبير يطول ولكن هذه صورة موجزة لعلاقة وطيدة امتدت نصف القرن، واشعر بخسارة كبيرة لفقدانه لأنه كان يلعب دورا ثقافيا مهما وهو في لندن وتمتد آثاره إلى سائر القطار العربية.

ذنون أيوب بين صفعاته كمدرس وريادته ككاتب قصة

عندما كنت أنا وغائب طعمة فرمان طالبين في المدرسة المتوسطة كان الأستاذ ذنون أيوب يدرسنا الرياضيات وكان دائم العبوس والتجهم والعصبية وأذكر أنه سألني ذات يوم وعندما تلكأت في الاجابة صفعني صفعة قوية وأوقعني أرضا لكنني تماسكت ونظرت إليه نظرة تحد وعناد فما كان منه إلا أن يتراجع إلى الوراء، وأدرك أنه ارتكب حماقة لا ضرورة لها.

قمت من الأرض وعدت إلى المقعد الذي أجلس عليه وظل هو يقف في باب الصف حائرا ثم اقترب مني وقال لي إنه يعتذر عما بدر منه.

كان معظم الطلبة لا يحبونه لأنهم كانوا عرضة لصفعاته المستمرة ولكنني كنت أحس أن وراء هذا الرجل الضخم الجثة قلبا رحيما ينبض بحب الإنسانية واعتقد أن سلوكه هذا في تلك السنوات كان يعود إلى أن الشرطة كانت تراقبه وتحصي عليه أنفاسه ليل نهار كما أنه كانت له خلافات مع بعض القوى السياسية، وكان يحس الحصار الدائم وهذا ما قاله لي أيضا بعد

أن مرت سنوات وسنوات وأصبحنا أصدقاء.

كنت أتابع ما ينشر له من قصص قصيرة في بعض المجلات والصحف العراقية ولكنني كنت غير مقتنع بها لأنها كانت تعبر تعبيرا مباشرا عن الواقع، كنت أميل إلى مقالاته السياسية لأنها تختلف عن مقالات السياسيين الأخرى إذ كان فيها فكر مستقل ينطوي على رؤية ثقافية أي أنه كان يستفيد من مقدرته الأدبية في خدمة المقالة السياسية.

وفي أحد انتخابات حكومة نوري السعيد التي حاولت فيها أن تكون انتخابات ديمقراطية انتخب بعض الوطنيين العراقيين نوابا وكان ذنون أيوب من بينهم وبالرغم من قلة عدد هؤلاء فإن نوري السعيد سارع وحل البرلمان قبل أن يجتمع.

وعندما انتخب نائبا وقبل أن يحل البرلمان سافرت معه إلى سورية وبنان لحضور مؤتمر القوى اليسارية لبلدان الشرق الأوسط، وقد ذهبنا بسيارة ومعنا دليل وعبرنا الحدود دون المرور بنقطة التفتيش ثم عدنا إلى بغداد بالطريقة نفسها بعدها تركت العراق و لم أعد أراه أو أسمع عنه إلا من خلال الأصدقاء الذين كنت التقيهم وكانوا يلتقون به.

وقبيل ثورة تموز ١٩٥٨سافرت إلى فيينا لحضور مؤتمر السلم العالمي للمثقفين والفنانين وكان معي عنوانه في فيينا فاستأجرت ((تكسي)) وأخذت ابحث عن عنوانه وبذل سائق التكسي جهدا كبيرا للعثور عليه لأنه كان يقطن في المنطقة التي كان يحتلها الجيش السوفياتي، وكانت معظم عماراتها وبيوتها مخربة. وصلنا إلى باب كبير كان يحمل نفس الرقم والعنوان فقال لي السائق إن بيت صديقك هو هنا وكانت ساعة متأخرة من الليل وعندما

طرقت الباب أضيأت الأنوار من جميع شقق البناية لأن الباب الرئيسي كان مغلقا ولا أحد يأتي في مثل هذا الوقت لأن كل سكان العمارة كانوا يحملون مفاتيحهم الخاصة.

رأيت من بين الوجوه التي دفعها الفضول لرؤية الطارق وجه ذنون فناديته باسمه فالتفت وقال لسكان العمارة إنه آسف أن يطرق الباب صديق له في هذه الساعة من الليل ولكن لا مفر من ذلك. سكنت عنده يومين أو ثلاثة إلى أن انتقلت إلى غرفة في بنسيون خاص ولكن الأيام القليلة التي قضيتها معه كانت ممتعة جدا كان يحدثني ونحن نتجول في شوارع فيينا الجميلة عن السياسيين وفضائحهم أشياء لا يعرفها أحد وكنت أجد متعة في ذلك واستكمالا للمعلومات عن ما يجري في العراق وخاصة ما يجري خلف الكواليس.

وأذكر أنه كان يمتلك حماما أشبه بخزانة للملابس فإذا أراد المرء أن يستحم يدخل في هذا الصندوق الحديدي ويفتح الكهرباء ليسخن الماء وقد دخلت إلى هذا القفص مرتين وأنا خائف من أن أصعق بالتيار الكهربائي ذلك أن هذا الصندوق كان قديما جدا وربما اشتراه بقروش قليلة من انقاض الحرب الثانية أو من مخلفات الجيش الروسي. وربما كان هذا الحمام الصندوق يعود لجنرال كان يجد متعة للاستحمام في داخله. كما أنه كان يدعوني بسيارته المتواضعة للتنزه في الغابات والقرى النمساوية الجميلة وما كان يلفت نظري هو كثرة القلاع القديمة التي تتربع فوق قمم الجبال وخاصة في الليل عندما تضاء هذه القلاع فتبدو أشبه بالنجوم الكبيرة القريبة من الأرض.

وبعد سقوط نظام عبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣عدت التقي

به من جديد في براغ هذه المرة وكان قد ترهل وأدركته الشيخوخة ولكنه كان يحاول أن يبدو شابا بصحبة امرأة أصغر منه أصبحت في ما بعد زوجته. كنا نلتقي في مقاهي براغ الجميلة وبخاصة في ساعات النهار إذ أنه كان يخلد إلى بيته في الليل ولا يخرج إلا للضرورة القصوى، كما كان يكتب كثيرا دون أن ينشر شيئا مما يكتب نظرا لصعوبة النشر وعدم اقبال الكثير من الناشرين على ما يكتبه وكان يشكو من هذه الحالة جدا.

وعندما تركت موسكو وأقمت في القاهرة لم أعد أراه. وفي نهاية السبعينيات والثمانينيات التقيت به عدة مرات في بغداد حيث كان يداوم على حضور مهرجان المربد الشعري وقد تغير في تلك السنوات، وكان يحاول التقرب من السلطة الحاكمة ببعض كتاباته لأنه كان في حاجة إلى النقود وليس له أي مورد.

وما يبقي من هذا الرجل الكبير هو أنه كان علما من أعلام الوطنية وكاتبا قصصيا حاول في بدايات القصة العراقية أن يضع لبنة في معمارها ولا أستطيع أن أحكم عليه نقديا فالنقد هو الذي يقول كلمته.

غائب طعمة فرمان

تعرفت على الكاتب العراقي الراحل غائب طعمة فرمان عندما انهيت دراستي الابتدائية ودخلت متوسطة الرصافة في بغداد وكنا نجلس على مقعد واحد وكان غائب قليل الاهتمام بالحياة الاجتماعية ويميل إلى العزلة والإنطواء منذ شبابه الباكر، وكانت معرفتي به عادية جدا ولكنها بدأت تقوى يوما بعد يوم، وعندما انهيت دراستي في المتوسطة وانتقلت إلى الاعدادية المركزية رسب غائب في امتحانات البكلوريا في الصف الثالث، وهكذا افترقنا و لم اعد اراه إلا قليلا، وعادت علاقتي به تقوى عندما أوشكت على الانتهاء من دراستي الاعدادية حيث كنا نقطن في حيين متقاربين أنا في باب الشيخ وهو في نهاية شارع الكيلاني الذي يمتد ويتصل بشارع الرشيد.

وكنا أحيانا نذهب إلى سوق السراي وسواه من أسواق الكتب ونشتري الكتب القديمة والجديدة. وكان بعض اصحاب المكتبات يوافقون على اعارتنا بعض الكتب واعادتها في اليوم الثاني. وكان يميل إلى كتابة الشعر وكنت أميل إلى كتابة القصة القصيرة والشعر، وأذكر أنه كتب ذات يوم قصيدة مكونة من ١٠٠ بيت حاولت أن أجاريه ففشلت و لم اكتب إلا ثلاثين بيتا.

في تلك السنوات بدأت اعراض مرض على غائب ولكنها أعراض بطيئة لم تظهر مباشرة، كانت تبدو في حركات يديه وفي نظراته حيث كان يستخدم نظارات طبية بأعلى درجة وهذا ما كان يجعل القراءة لديه عملية موجعة ومؤلمة. ولكنه مع ذلك كان يتغلب على وجعه ويقرأ. وذات يوم رحل إلى القاهرة ليستكمل دراسته وبدأ يكتب في بعض الصحف والمجلات المصرية، وأذكر منها مجلة الرسالة. وعقد صداقات مع بعض الأدباء المصريين ومنهم أنور المعداوي وعبد القادر القط ومحمود حسن إسماعيل وسواهم من الكتاب والشعراء، ولكنه لم يستطع مواصلة الدراسة في القاهرة نظرا لضعف حالته المادية فعاد إلى بغداد ليعمل محررا في جريدة الأهالي التي كان يصدرها زعيم الحزب الوطني الديمقراطي الأستاذ كامل الجادرجي بجانب الكاتب الصحفي عبد المجيد الونداوي والشاعر حسين مردان. وفي أثناء عمله نشر بعض قصائدي في الجريدة المذكورة، وعشية حلف بغداد غادرت بغداد ولم أعد أراه. وكان أول لقاء به بعد هذه السنة في موسكو حيث كان يعمل هناك في دار التقدم مترجما لروائع الأدب الروسي.

وفي موسكو بدأنا نلتقي من جديد سواء في بيته أو في بيتي أو في مقهى فندق موسكو، وكان هناك بعض الشعراء العراقيين والعرب يترددون على هذا المقهى وكانوا آنذاك طلابا أذكر منهم حسب الشيخ جعفر والشاعر السوداني جيلي عبد الرحمن والشاعر المصري نجيب سرور والكاتب اليماني عمر الجاوي وغيرهم كثيرون.

كنا في لقاءاتنا نتحدث عن الوطن وشؤونه وعن آخر ما

استجد به من أحداث أدبية وثقافية وكان العراق قد بدأ يدخل متاهة لا أول لها ولا آخر، إذ بدأت الانقلابات المتعاقبة وتغير الوجوه والاقنعة والرجال وأشباه الرجال وقد دفع المثقف العراقي ثمنا فادحا لذلك إذ أنه كان وقودا للعبة السلطة، فالسلطة لا تغفر للمثقف إذا ما وقف في وجهها حتى في موته ولكنها تتصالح بسرعة مع السياسي الذي يرفع السلاح بوجهها أو لا يرفعه، وكانت لعبة العباءة والخنجر على أشدها.

ظل غائب يواصل مسيرته في موسكو، وعند اقامتي في أسبانيا اتصل بي من السويد عدة مرات عندما كان يزور صديقا مشتركا هو الشاعر عبد الغني الخليلي، كما أرسل لي رواية جديدة كانت قد صدرت له بعنوان ((المؤمل والمرتجي)) وتتحدث عن المنفيين السياسيين وعمليات التعرية المادية والروحية التي تحدث لهم.

وفي عام ١٩٩٠ وكان العراق قد احتل الكويت بلغني نبأ رحيله حيث دفن هناك، وقد كتبت قصيدة في رثائه بعنوان ((إلى غائب طعمة فرمان)) تحدثت فيها عن موت المؤلف، وكيف يأخذ النص بعدا جديدا بعد موته ونشرت القصيدة في ديوان ((كتاب المراثي))

حسين مردان رجل القناعات الغريبة

في بداية الاربعينات قمنا برحلة إلى بعقوبة وكنت وقتها طالبا في الثانوية وبعد جولة قصيرة في المدينة جلسنا في احد المقاهي الشعبية فشاهدنا شخصا غريب الملابس بشكل يلفت النظر: ملابس سوداء لماعة ونظارات داكنة ودفتر أسود كبير تحت أبطه. قيل لنا أنه شاعر، وربما كان منظره الغريب الملفت للنظر يغري الآخرين أمثالنا بالتندر منه فراح بعض الطلاب يتغامز عليه واسمعه بعض الألفاظ المثيرة، ولكنه كان باسما و لم يحمل مشاكساتهم هذه محمل عداء واستهزاء فاقترب منا وأخبرنا أنه شاعر وكنت من البعض الذين لم يعجبه مزاح الطلاب الآخرين، طلبنا منه أن يقرأ لنا من شعره فقرأ، كانت قصائده ملفتة للانتباه حقا فهو يتحدث بحرية تامة عن الحب والجنس وبطريقة اباحية لم نألفها من قبل وكأنه يحاول أن يكون في قصائده امتدادا لأشعار الياس أبو شبكة وبودلير الذي قرأ له شيئا من شعره المترجم في تلك السنوات.

و لم يلبث أن أصبح حسين مردان صديقا لنا، قبل أن نودعه اقترحنا عليه أن يغادر بعقوبة إلى بغداد لأن بغداد في تلك السنوات كانت عاصمة الشعر في البلاد العربية.

بعد أشهر من لقائنا معه في المقهى صرنا نراه في بغداد متصعلكا من بار إلى بار ومن مقهى إلى آخر و لم يكن له مسكن يأوى إليه فكان يقضي ليلته متنقلا بين الأصدقاء ويقضي نهاره في المقاهي، ورحت منذ تلك الفترة اتتبع قصائده وأعماله و كان كلما كتب قصيدة جديدة طاف بها جميع المقاهي ليقرأها على الأصدقاء و كان يبدو لامعا ومتقدا في نظرنا في ذلك الوقت، بل كان من الشعراء الذين يحسب لهم حساب كبير. وبعد سنوات بدأ ينشر قصائده في بعض الصحف العراقية وبدأ اللغط يدور حول ما يكتبه وتناقلته الألسن في كل مكان.

وفي رأيي أن طبيعة حياته المتنقلة لم تتح له فرصة للتزود بالثقافة بشكل عميق ومتواصل، كما أن نقص تعليمه ـ ولا أدري ربما لم يكن قد تخرج في أية مدرسة ـ كان سببا هو الآخر وهو ماجعله محدود الثقافة وجعل شاعريته محدودة أيضا، وقد استطاع أن يعوض عنها بالموضوعات المثيرة التي يكتب فيها قصائده.

وقد بقي حسين مردان صديقا لي حتى موته وكنت ألتقيه باستمرار، ليس في العراق فحسب، بل في القاهرة وبعض العواصم الأوربية، وكان رجلا من الطراز الخاص حقا فهو يعيش في قناعة عجيبة ولا يلتفت إلى رأي الآخرين به، وقد أدى ذلك إلى الأضرار بشاعريته التي كان يمكن لها أن تتفتح وأن تعطي بشكل أفضل لو انتبه إلى نفسه وإلى ملاحظات الآخرين في قصائده.

كان لا يعرف أية لغة أجنبية ولهذا فهو عندما يسافر إلى أي مكان يقضي الليل والنهار في الغرفة التي يكتريها ولا يخرج إلا

بصحبة صديق عراقي، فقد كان يخاف من أوروبا خوفا شديدا ومع ذلك فهو عندما يعود يكتب المقالات عن مغامراته هناك، وكان يحدثني عن مآزق كثيرة وقع فيها، كأن يذهب إلى المطعم فيسأله النادل عن الطعام الذي يريده فيسقط في يده وعند ذاك ينتبه النادل إلى ان الزبون لا يعرف لغة اجنبية فيمسكه من يده ويذهب به إلى المطبخ ويريه الطعام.

كما كان يضل أحيانا فينزل في محطة هي غير المحطة التي يقصدها فيقع في حرج شديد ولا يعرف كيف يفهم الناس أنه يريد أن يذهب إلى مدينة أخرى، ولكنه كان مصرا على أسفاره التي لا تكلفه إلا القليل، فقد كان يختار أرخص وسائل المواصلات وأرخص السبل للسفر، كما أظن أنه لم يسافر وحده، بل مع آخرين لا يقلون عنه عدم معرفة بأمور الدنيا فكان يتورط معهم ويتورطون معه.



٣ ـ مـــــدن



بغداد

- ١ -

في طفولتي كانت علاقتي بالقرية أكثر من علاقتي بالمدينة، لأنني كنت أذهب مع والدي في العطل الصيفية إلى الريف حيث السماء الزرقاء وحقول القمح المترامية الأطراف والطيور بكافة اشكالها، فكنت اتوحد مع الطبيعة ومخلوقاتها التي قلما كنت آراها في المدينة. وعندما قل ذهابي إلى القرية صيفا بعد صيف لأن والدي كان قد شغل بأمور اخرى و لم يعد يجد وقتا لزيارة اخوته وأعمامه، واجهت في تلك الآونة محنة اكتشاف المدينة واكتشاف اسرارها وممراتها السرية وضواحيها، والخيوط الخفية التي تربطها بالماضي.

كانت بغداد ولا تزال تحمل في وجهها عذرية الزمن وعطره، ورائحة القباب والمآذن الشاخصة التي ينتمي بعضها إلى العصر العباسي وخاصة العصر العباسي الأخير، كانت تستهويني فكنت أطوف حولها، كما كان يطوف نهر دجلة. في مدينة بغداد، كنت أقرأ الشواهد المدونة على متونها واكتشفت في

احدى جولاتي أن البعض قد ازاح بعض المتون ومحاها بغية كتابة تواريخ أخرى مزورة وأسماء لا تنتمي إلى العصر الذي فيه هذه الآثار الباقية. وكانت مقبرة الإمام الغزالي التي تقع بالقرب من محلة باب الشيخ التي ولدت فيها في بغداد احدى محطاتي وبخاصة قبيل الغروب، حيث كان يلتقي بين القبور أو على أطراف منها بعض الأعراب الذين جاءوا المدينة ليبيعوا اغنامهم وبعض الباعة الصغار الذين كانوا يسرقون بعض ما يحمله هؤلاء الإعراب ويفرون به كما كان البعض يبيع طيورا بأقفاصها أو بدون أقفاص وهي مربوطة بخيوط بالية.

أما المحطة الثانية في تجوالي فقد كانت بعيدة نسبيا وهي مقبرة السهروردي حيث تقع بجوارها مقابر اليهود وكان القدم يظهر على هذه المقبرة من رائحة التربة والحجارة وبعض الأشجار الهزيلة التي كان يحتطبها الفقراء.

كنت أقف قبالة مسجد المقبرة الذي كان شبه مهجور وأحاول استقراء ما جرى له دون جدوى وكنت أحيانا أسأل بعض سكان القبور الذين لا يعرفون شيئا. وعندما كنت أعود إلى البيت كنت ألوذ بجدي لكي يشرح لي بعض غوامض ما رأيت وما شاهدت، وأحيانا وأنا أعرج على هاتين المحطتين أذهب إلى نهر دجلة من الباب الشرقي لبغداد وبخاصة أيام الفيضان حيث كان النهر محصنا بأكياس الرمل خوفا من غرق المدينة، وما أكثر ما كان الماء يعلو ويطفو فوق الأكياس وينساب إلى الشوارع وكانت الشرطة عندما يبلغ النهر هذا المستوى تلقي القبض على كل من يمر بالشارع لأخذه للسخرة، وكان مشهدا مؤلما حيث كان البعض يشكو من أنه ذاهب لشراء دواء لوالده المريض... ولكن الشرطة كانت تقسو ولا تسمع هذه الاحتجاجات.

- ٢ -

كنت أرى الكثير من الأجانب الذين يزورون قناصل الدول الأجنبية يطوفون بسياراتهم ليراقبوا الفيضان وكان بعضهم يقهقه ويضحك على منظر الذين تختطفهم الشرطة لتأخذهم إلى الأماكن التي تخترق فيها مياه النهر ضفافه وكم كنت أتمنى لو كنت أملك القوة لأمنع هؤلاء الذين كانوا يسخرون من المدينة وبؤسها وتعرضها للخطر.

في فجر أيام العيدين: عيد الأضحى وعيد الفطر كان معظم سكان بغداد في تلك السنوات يذهبون لزيارة موتاهم في قبورهم وكانوا يحملون بعض الأطعمة ليقدموها إلى الفقراء الذين كانوا يجتمعون باعداد كبيرة هناك وعندما كنت أعود مع جدتي وأمي أجد جدي وهو يعد فطور الصباح ويهيئ قهوته وأركيلته وكان يسألني وهو يبتسم: كيف كانت الأحوال، فابتسم أيضا دون أجيب وذات صباح عيد سألت جدي قبل أن يتحدث معي: لماذا لا نزور اقرباءنا الفقراء بجانب زيارة اقاربنا الموتى، وكان يقول لي أنك عندما تكبر سوف تفهم السبب وتتألم كثيرا. كان يغير الحديث فيقدم لي كتابا ويقول لي هل قرأت هذا الكتاب فأقول له انني قرأت بعض سطوره بدون استئذانك و لم افهم شيئا فيقول لي

اختر بعض الجمل منه التي لا تستطيع فك حروفها حتى اشرحها لك وكنت لا أفهم شرحه احيانا ولكنني كنت أدعي الفهم خوفا من سخريته المبطنة. ويظهر أن بعض البشر يريدون أن يفهموا من الآخرين كل شيء بغض النظر عن عمرهم.

في امتداد شارع الكيلاني الذي يتصل بشارع الرشيد كان هناك ((مسجد الخلاني)) وكان يضم مكتبة كبيرة جدا تضم مختلف الكتب، حتى الحديثة مثل مؤلفات طه حسين واشعار شوقي والرصافي وعشرات الأدباء العراقيين والعرب، وقد هداني إلى هذه المكتبة صديق العمر الكاتب القصصي الراحل غائب طعمة فرمان فذهبت معه لأول مرة وطلبت استعارة كتاب الأيام لطه حسين ج١، فنظر إلي أمين المكتبة وقال: ماذا ستفعل بهذا الكتاب، قلت له لا ادري ولكني سأرى، وعند ذلك قال لي سأروي لك نكتة عن مؤلف هذا الكتاب، هذه النكتة تقول أنه عندما يسأل عن شيء ما كان يجيب (لما انشوف) برغم عماه ويظهر أنه لم ير شيئا حتى تأليفه هذا الكتاب فاكتشفت أن أمين المكتبة كان معاديا للأدب الحديث، وكان يتمنى لو أنني استعير ديوان صفي الدين الحلي، أو الحبوبي لأنه وضع أمامي هذين الكتابين ولكني تجاهلت وجودهما وأصررت على استعارة كتاب الأيام، عند ذاك طلب مني الهوية وقلت له أنني لا أملك هوية فتدخل الصديق غائب طعمة فرمان وقال أنني أكفله، فقال أمين المكتبة أن الكفالة ليست بالكلمات وعليكما أن تدفعا دينارا، ولكننا استعدنا الدينار سريعا لأنني لم أنم طوال الليل وأكملت الكتاب، ورابطت بالقرب من مكتبة المسجد إلى أن جاء واستعدت الدينار وحاولت اكتشاف مكتبة أخرى ليس فيها أمين كهذا الرجل الذي كان يكره طه حسين.

- ٣ -

في تلك المرحلة كنت أنا وصديقي غائب طعمه فرمان نحاول كتابة الشعر، وذات يوم كتب (غائب) قصيدة مكونة من (١٠٠) بيت فحاولت مجاراته ولكنني فشلت وتوقفت عند البيت الثلاثين. والغريب أن (غائب) هجر الشعر وتوجه إلى كتابة القصة القصيرة والرواية فيما بعد وعندما اكتشف انني لم أحب أمين مكتبة جامع الخلاني قال لي استعد في يوم الجمعة للذهاب إلى سوق السراي وسوق السراي من أهم الأسواق الشعبية والقديمة في بغداد، ويضم عشرات المكتبات التي تبيع الكتب القديمة أو المستعملة أي التي قرئت، وذهبت معه فعلا في يوم جمعة منذ الصباح الباكر ومعنا بعض النقود فاشترينا بعض كتب جبران خليل جبران، وبعض الروايات المترجمة إلى العربية، ولكن جمال السوق وجمال المكتبات ورائحة الماضي التي تعبق بين جنباته جذبتنا وأغرتنا بالجلوس لأول مرة في أحد مقاهيه، واكتشفنا أن بعض الأدباء العراقيين والصحفيين يجلسون في ذلك النهار، وكان المقهى مشهورا بتقديم الشاي على الطريقة العراقية. واذكر أن رجلا يضع نظارات سوداء نظر إلى الكتب التي كانت معنا، وطلب أن يقلبها وعندما رأى اسماء مؤلفيها هز

رأسه بسرور وقال عـن نفسـه أنـه صحفـي وأديـب وكـان هـذا الشخص هو مشكور الأسدي الذي أصبح من أشد اعدائنـا بعـد سنوات قليلة لأنه عمل رقيبا على المطبوعـات، وكـان يمنـع كـل الكتب الجيدة وخصوصا المترجمة إلى العربيـة، وقـام بتأديبـه ذات يوم أحد اصدقائنا وهو الشاعر العراقي الراحل كاظم جـواد بعـد منعه لاحـدى المجلات الـتي نشـرت قصيـدة لـه اذ سـكب قـدح الشاي الساخن على رأسه الصلع، وهرب.

منذ تلك الزيارة الأولى أصبح سوق السراي منجما كبيرا لنا نلتقـط منـه الكتـب النـادرة الـتي غـذت مخيلتنـا ولعبـت دورا في التكوين الثقافي لجيل الاربعينيات والخمسينيات.

والغريـب أن الشـرطة كـانت تغـض النظـر عـن الكثـير مـن الكتـب الـتي كـانت تمنـع، ولكننـا كنـا نجدهـا في مكتبـات هـذا السوق، فاكتشفنا أن بعض الموظفين في دائرة المطبوعات يسرقون هذه الكتب ويبيعونها لأصحاب هذه المكتبات. وقد وقع حادث طريف آخر ذات يوم، عندما ذهبت مع صديقي الشـاعر كـاظم جواد إلى المكتبة العصرية التي كانت تقع خـارج سـوق السـراي أي في شارع المتنبي، وسـألناه عـن كتـاب الأم لمكسـيم غوركـي وكان صدر في دمشق عن دار اليقظة العربية، فقال لنا إنه يعتقـد أن الرقابة ستمنعه، وأعطانا نسخة وقال بامكانكما أن تقرآ هـذه النسخة معا، لكن صديقي كاظم قال أنه سيأخذ النسخة في اليوم التالي إلى الرقيب لرغمه على الموافقة على تداولها وكـانت بغـداد تئن تحت الحكم العسكري، وكان الرقيب ضابطا وعندمـا ذهبنـا إليه في اليوم التالي، قال لنا الجندي المكلف بخدمته إنـه ذهـب إلى مكان ما وسيعود بعد قليل وقلنا له إننـا أصدقـاء الضـابط، فقـال

تفضلا إلى أن يأتي فما كان من كاظم إلا أن ذهب إلى طاولة الضابط فوجد الختم المدونة عليه الموافقة وختم النسخة التي كانت معنا. عدنا إلى المكتبة العصرية وقلنا له أن الرقابة قد وافقت على الكتاب، وكان لديه خمسون نسخة فقط، وما هي إلا ساعات حتى بيعت النسخ جميعا، وكنا نراقب الأمر عن كثب فبعد قليل رأينا سيارة عسكرية تقف في باب المكتبة وطلبوا من صاحبها أن يذهب معهم فاحتج وأراهم النسخة المختومة ولكنهم لم يقتنعوا بأقواله.

وقد أوقف صاحب المكتبة ثلاثة أيام وأطلق سراحه بأمر من رئيس الوزراء، وأصبحنا أنا وصديقي نخاف من المرور من أمام المكتبة إلى أن ضبطنا ذات يوم ونحن نمر من أمامها، وقال لنا انكما شجعان وقد غفرت لكما ما حل بي، ولولا علاقتي برئيس الوزراء لما أطلق سراحي حتى اليوم.

دمـــشق

كانت دمشــق أول عاصمـة عربيـة أزورهـا وكـان ذلـك في بداية الخمسينات أيام حكم الشيشكلي، ولكــني لم أتعـرف علـى الحياة الداخليــة لدمشـق في تلـك الزيـارة إذ كنـت مشـغولا مـع اسـرتي وكـان القـوس الـذي اتحـرك بـه يبـدأ بــالفندق وســوق الحميدية وبعض الشوارع القريبة ولكنني لم أتـرك الفرصـة تفلـت من يدي إذ كنت اشتري يوميا العشرات من الكتب التي لم يسبق لي أن قرأتها والتي كـانت ممنوعـة في العـراق وعـدت إلى بغـداد بعد أيام قليلة فوجدتُ صعوبة في إدخال الكتب، ولكـــن صديقـا كان معنا في نفس السيارة ادعى أن الكتـب تعـود لـه فسـمح لـه بإدخالها وقد ظهر لي في ما بعد أنه شخصية معروفة.

أما الزيارة الثانية فقد تمت عشية حلف بغداد ١٩٥٥، وكان معي الأستاذ ذو النون أيوب الكـاتب العراقـي المعـروف وعضـو البرلمان آنذاك الذي حله نوري السعيد بعد أيام قليلة من تشـكيله لأنه لم يطق أن يرى أربعة من الوطنيين أعضاء فيه.

وقد عبرنا الحدود العراقية بسيارة خاصـة دون المـرور بنقطـة التفتيش بمساعدة بعض الأصدقاء الذيـن يعرفـون المنطقـة، وكـان سبب الزيارة حضـور مؤتمـر الأحـزاب اليسـارية لبلـدان الشـرق

الأوسط ومعظمها ممنوعة في بلدانها. وقد غضت السلطات السورية النظر عن نشاط هذا الاجتماع لأنه كان يخدم مصالحها الاستراتيجية.

وفي تلك الزيارة تعرفت على أبرز الأدباء السوريين المخضرمين منهم والأجيال الجديدة التي كانت في بداية حياتها الأدبية وأذكر من الأجيال الجديدة إسماعيل صدقي، جلال فاروق الشريف... وحنا مينه وشوقي بغدادي وسعيد حورانية، وآخرين.

كنا نلتقي يوميا في مقهى الهافانا الذي كان يؤمه معظم الأدباء السوريين. وكان أسمي الأدبي قد سبقني ولهذا فإنني كنت محورا لكثير من المناقشات الأدبية والثقافية، وكانت سورية تمر في عصرها الذهبي كما وصفها الكثير من الكتاب الأوروبيين الذين زارودنا في تلك السنوات. وأذكر أن ديوان (أباريق مهشمة) كان جواز سفري إلى قلوب هؤلاء الأصدقاء.

وعندما كنت أجد نفسي وحدي، أذهب باتجاهات مختلفة لاكتشافي دمشق العريقة، التي يعود تاريخها إلى ما قبل الأغريق والرومان. وكانت من أهم المحطات التي أبدأ فيها مسيرتي هو الجامع الأموي ثم أذهب باحثا عن بردى الذي تغنى به معظم شعراء سورية. وعندما قيل لي أن هذا هو بردى لم أندهش لكونه ساقية، فلقد حاولت أن أذهب إلى منبعه وقد خلبني جماله في منبعه حيث كانت الأشجار الكثيفة تغطي ضفتيه وكنت أحيانا أجلس وحدي أتأمل مياهه الشحيحة وأرى من خلال هذا أشياء كثيرة كنت أراها في احلامي.

وذات يوم دعاني صديق للذهاب إلى ضريح الشيخ محيي

الدين بن عربي - في الصالحية وهناك وقع ما لم اتخيله إذ رأيت ((عائشة)) التي كتبت عنها في ما بعد في اشعاري تتشح بالسواد وتغطي وجهها ولا يظهر منها سوى عينيها. وقفت أمامها مبهورا وأخذ قلبي يدق، فانتبه والدها الذي كان يقرأ دعاء بلغة فارسية. وقال لي بلغة عربية فصحى - أنها مثل أختك فشعرت بالخجل وخرجت باكيا وأطلقت ساقي للريح خوفا من أن أراهم ثانية. وقد ظهر تأثير هذه الصبية في قصيدتي التي كتبتها بعد سنوات بعنوان ((عين الشمس أو تحولات محيي الدين بن عربي في ترجمان الأشواق)) والغريب أنني عندما قرأت مقدمة ابن عربي لديوانه اكتشفت أنه يتحدث عنها معبرا عن شعوري، وأنا أرمق هذه الصبية.

كثرت بعد ذلك زياراتي إلى دمشق وبخاصة بعد عام ١٩٦٤وهو العام الذي عدت فيه من موسكو لأستقر في القاهرة. كنت أذهب من القاهرة إلى دمشق كل شهرين وأزور كل المناطق التي سبق لي أن زرتها وقد صدرت لي بعض الكتب في تلك السنوات فيها اشارات كثيرة إلى مدينة دمشق، وبخاصة المدينة نفسها والخابور وحلب وحوران أي المناطق التي كانت تختمر فيها الكثير من الثقافات قبل ظهور الإسلام. وهذا ما قادني إلى زيارة مدينة ((بصرى)) التي خلبني معمارها ومسرحها الذي يستطيع أن يقف المتكلم في قاعة ويتكلم ويسمعه آخر مستمع يجلس في الصف العلوي الذي يبعد اكثر من مئة متر وهذا تصميم معمول به في جميع مسارح المدن الدارسة الإغريقية والرومانية بشكل خاص.

في كل زيارة كان بعض الوجوه يختفي والبعض الاخر

يظهر، وهكذا فقد مررت على دمشــق وبقيــت وحـدي أدور في رحاب هذه المدينة الأولى التي زرتها وأحببتها. وفي آخر زيارة لي قبل فترة وجيزة احسست احساســا جديـدا إذ شـعرت وكـأني ازور المدينة للمرة الأولى فحاولت اكتشافها من جديد ووجـدت أن احساسي الجديد ووعي بكثير من حقائق هذه المدينـة قـد نمـا وتطور، حتى أنني احسست أن المدينة أصبحت جزءا من تجربـتي الشعرية.

وتمتاز هذه المدينة الخالدة حسب احساسي بأنها تضم مجتمعا متحضرا يذوب فيه جميع الوافدين من الأريــاف والقـرى البعيـدة ويصبحون نواة لتحول جديد في حياة المدينة

القاهرة

- ١ -

بدأت علاقتي بالقاهرة قبل أن أراها، فقد كنت معجبا بمجلة ((الغد)) وبمنشورات دار الفكر التي كانت تصدر المجلة، وقد أشار عليّ أحد الأصدقاء المقربين في بغداد أن أرسل ديوانا جديدا لينشر في هذه الدار. وقمت بارساله فعلا بالبريد المضمون. وكنت أخشى أن يصادر من قبل رقابة البريد في العراق، ولكن الكتاب أفلت من الحصار ووصل إلى القاهرة، وأثناء وجود الكتاب في المطبعة، وقع العدوان الثلاثي على مصر وبعد توقف العدوان وانسحاب القوات المعتدية صدر الديوان مباشرة، وقام بتصميم غلافه ورسومه الداخلية الفنان الراحل فؤاد حسن الذي كان أحد أركان هذه الدار.

والغريب أن الرقابة المصرية حذفت جملا وكلمات كثيرة من الديوان، مع العلم أن الديوان كان دفاعا ضد الغزاة والمعتدين وتغنيا بنهضة العرب وفاتني أن أذكر أن الديوان هو ((المجد للأطفال والزيتون)) وشعرت بغصة وأنا اتصفح النسخة التي أرسلت لي وشعرت أنني لا أستطيع تفحصها فاخفيتها في أحد

رفوف مكتبتي.

وبعد سنتين أو ثلاث أعدت طبع الديوان من جديد في بيروت معيدا إليه المحذوفات، وعاد لي احساس بالراحة حتى أنني أتلفت نسخة الطبعة الأولى التي كانت في مكتبتي.

وكانت أول زيارة لي إلى القاهرة هي حضور مؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي ضمن وفد العراق الذي يضم أعضاءه من الجبهة الوطنية. وكنت أصغر أعضاء هذا الوفد والمستقل الوحيد من بينهم. ومن طريف ما حصل لي أثناء هذا المؤتمر أن أحد الشعراء الروس الذي كان حاضرا سألني عندما قدِّمت إليه: كيف حال والدك البياتي ظنا منه أنني ابن البياتي وليس البياتي الشاعر وكانت نكتة طريفة تداولها أعضاء المؤتمر من مختلف البلدان حتى أن أدباء الهند والصين طلبوا مني أن أوقع لهم في أوراق. وكتبوا مناسبة هذا بلغتهم.

بعد عودتي من القاهرة إلى دمشق حيث كنت أقيم احسست أن القاهرة قد خلبت لبي وأنها ستكون محطتي التالية في ما بعد لأنها تمثل القلب النابض لمنطقة شاسعة فيها الوطن العربي، تلتقي فيها مختلف التيارات والآراء وتنصهر في بوتقة واحدة.

وبعد ذلك عدت لزيارة القاهرة من جديد للاقامة فيها. وقد شجعني على السفر الشاعر والكاتب عبد الرحمن الخميسي الذي استضافني في بيته عدة أسابيع، وعندما استأجرت شقة تكفل بدفع الأثاث الذي اشتريته، وكانت دار الديمقراطية الجديدة التي يشرف عليها الأستاذ محمود أمين العالم قد نشرت لي ديوان ((أشعار في المنفى)) بحلة أنيقة، وأشرف على تصميم غلافه

الفنان الكبير عبد الغني أبو العينين.

وكان القدر يخبئ لي مفاجأة تجعلني أشعر بالسعادة، وكان ذلك عندما كنت أقيم في موسكو إذ اتصل بي سفير مصر في موسكو في تلك الآونة وأخبرني أن الرئيس عبد الناصر قد وجه لي دعوة لزيارة مصر أو الإقامة فيها كما شئت. فسافرت بعد أيام قليلة من الدعوة، وأذكر أن الطائرة التي سافرت فيها كانت تقل أيضا رئيس الخبراء الروس لبناء السد العالي. واقمت في القاهرة منذ ذلك العام حتى موت الرئيس عبد الناصر، وقبيل كامب ديفيد قررت العودة إلى بغداد.

في تلك السنوات أي منذ عام ١٩٦٤ اتسعت علاقتي بالمثقفين المصريين وكنت أحافظ على الود بيني وبين من كنت أصادقهم دون أن أثير أية حوارات سياسية تثير الخلاف والاختلاف ولهذا فإن الجميع قد أحبوني وفتحوا لي قلوبهم وبود.

- ٢ -

كنت أحب ليل القاهرة فأسهر حتى الفجر وأنام، استيقظ قبيل الظهر بقليل، وكانت لي مقاه حسب ساعات النهار. ففي الصباح كنت أجلس في مقهى ((ريش)) أو ((لاباس))، وفي المساء أعود إلى ((لاباس)) من جديد. وعند الثامنة أو التاسعة أذهب مع مجموعة من الأصدقاء إلى مقهى ((الفيشاوي)) في حي الحسين وأسهر مع ثلة كبيرة من الأصدقاء حتى مطلع الفجر، وكنا نعود مشيا على الأقدام إلى بيوتنا قاطعين ثلاثة كيلومترات أو أكثر، وكنا لا نتوقف في النقاش عن كل شيء من الكتب الجديدة، وإلى التمثيليات إلى القصائد الجديدة التي كانت تنشر في الصفحات الأدبية مما فتح ذهني ونصح مداركي إذ إنني كنت انتقل في تلك الآونة من مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة أن كانت الأربعينات هي مرحلة الكهولة.

فبجانب الحياة الضاجة بدأت تتكون عندي ميول جديدة حيث كنت اتردد على الأماكن القديمة والآثار مثل زيارتي لمسجد الأمام الشافعي، وقد كتبت قصيدة فيما بعد ((رسائل إلى الأمام الشافعي))، مقتفيا فيها أثر الفقراء الذين كانوا يكتبون الرسائل ويضعونها في ضريحه، ولكن رسالتي كانت رسالة شعرية

تتفجر بالعنفوان الذي كنت أحسه في تلك السنوات والتي امتزجت فيها ثورة الروح والجسد، أو مرحلة الارتحال من الزمني إلى الأبدي، وهذه ظاهرة طبيعية يمر فيها الفنانون والشعراء في تلك المرحلة من عمرهم.

في مرحلة العصر الذهبي للقاهرة في تلك السنوات كان الأستاذ نجيب محفوظ من أبرز الشخصيات الأدبية التي يتحلق حولها الكثير من أدباء مصر الجدد وكانوا يصغون إليه ويتعلمون منه الشيء الكثير، وكان مقهى (ريش) المقهى المفضل لديه للالتقاء بالأدباء الشباب، وكان يزور المقهى مرة كل أسبوع، وكنت أذهب لزيارته والتحدث معه في كثير من الشؤون الأدبية التي كانت تؤرق الأجيال الجديدة بشكل خاص وعن التجديد في الشعر والرواية.

ومن خلال هذه الصحبة وصحبتي للدكتور لويس عوض الذي كان رئيس القسم الثقافي لجريدة الأهرام تعرفت على الكثير من الأدباء العرب والأجانب الذين كانوا يزورون القاهرة باستمرار. وكانت دواويني الشعرية بدءا من ((سفر الفقر والثورة)) و((الذي يأتي ولا يأتي)) و((الموت في الحياة)) و((الكتابة على الطين)) و((قصائد حب على بوابات العالم السبع)) تغطي سنوات إقامتي هناك حيث طبعت في دار ((الآداب)) في بيروت باستثناء ((النار والكلمات)) الذي صدر بعد مجيئي إلى القاهرة بقليل عن دار ((الكتاب العربي)) في بيروت وديوان ((قصائد حب على بوابات العالم السبع)) الذي أكتمل في القاهرة وطبع في بغداد في طبعته الأولى.

أثناء إقامتي تلك زرت بلدانا عربية مختلفة ولفترات متعددة،

كما زرت جيكوسلوفاكيا وفرنسا. وكانت السلطات العراقية تتلصص عليّ وعلى كتاباتي حتى أنهم قدموا مذكرات عديدة إلى الرئيس عبد الناصر لمنعي من الكتابة، لكنه لم يستجب لطلبهم، وكانت السلطة العراقية تقوم بمنع المجلات التي انشر فيها أو تقطع الصفحات المنشورة فيها قصائدي بقصد الضغط. ولكن رؤساء تحرير معظم هذه الصحف اخبروني أنهم سيستمرون بنشر كل ما أكتب، ولكن الرقابة اللعينة تكاد تتشابه في كل البلدان، بحيث أن الرقابة المصرية منعت ديواني ((عيون الكلاب الميتة)) الذي يضم قصائد تفضح الطواويس الذين كانوا سببا في هزيمة حزيران.

وأذكر أن الشاعر معين بسيسو طلب مني نسخة من هذا الديوان الممنوع وكتب مقالة عنه دون الإشارة إلى عنوان الديوان ونشرها في جريدة الأهرام دون أن ينتبه رئيس التحرير إلى المقلب الذي نصبناه له.

وقد تساءل الكثير من الذين قرأوا المقالة أين الديوان وقد عرفوا أن الديوان تقرر منعه. كما أن الأهرام امتنعت عن نشر قصيدتي الشهيرة ((عذاب الحلاج)) وقامت بنشرها مجلة ((الحرية)) التي كانت تصدر في بيروت.

والغريب أن الرقابة المصرية سمحت بدخول المجلة المذكورة خوفا من إغضاب القائمين عليها لأنهم كانوا حلفاءهم.

موسكو

- ١ -

زرت موسكو ثلاث مرات، فزيارتي الثانية لها كانت للإقامة والعمل هناك أما الأولى فقد تمت عندما حضرت مؤتمر السلم العالمي للكتاب والفنانين الذي عقد في فيينا بمبادرة من مجلس السلم العالمي، هذا المؤتمر الذي حضره ناظم حكمت ورفائيل البرتي وبابلو نيرودا واراغون وسواهم من كبار الأدباء والشعراء.

وعندما كنت في فيينا تلقيت دعوة من وفد الكتاب السوفيات لزيارة موسكو. غادرت فيينا بطائرة شحن، ذلك لأن موعد سفر الطائرة التي تقل الركاب كان بعد أسبوع وكانت نقودي قد نفدت تماما ولم يتبق لدي إلا ما يكفي ليوم واحد. مرت الطائرة بعد اقلاعها ببودابست ثم (كييف) وفيها برح بي الجوع والعطش وكنت قد نزلت من الطائرة إلى مطعم المطار. وجلست حائرا وإذا برجل كان معي بنفس الطائرة يجلس بجواري قائلا: ماذا تطلب من طعام فقلت له إني لست جائعا وقال لي إنك جائع وهذا ظاهر على وجهك. فوافقت بعد قليل لأن الاعتذار يعني موتي من الجوع، وعلمت فيما بعد أن هذا

الرجل هو عالم روسي بالذرة وكان يحضر أيضا مؤتمرا في فيينا.

عندما وصلت إلى موسكو وجدت هناك من ينتظرني في المطار وقضيت أياما جميلة كنت أذهب إلى حديقة غوركي أو أجلس في مقهى الفندق الذي كان يعج بالفتيات الجميلات. وكان من السهل التحدث معي بأية لغة أو بأية إشارة إذا ما تعذرت اللغة. وعندما كنت سادرا في احلامي اتصل بعضهم ذات صباح وقال لي أن الثورة قامت في العراق وبعد ساعات قليلة اتصل بي الزعيم ملا مصطفى البارزاني الذي كان منفيا وقال لي من المهم أن نتحدث عما يمكن أن نعمله وحصل اللقاء بعد الظهر في بيته بحضور شخصيات كردية من اعوانه.

وبعد حديث طويل اقترحت أن يرسل برقية تأييد إلى القيادة الجديدة، وقد أرسل البرقية بالفعل وتلقى جوابها، وكان الجواب يتضمن دعوة له للعودة للعراق، وبعد ايام قليلة من هذا اللقاء عدت إلى العراق عن طريق امستردام والقاهرة فدمشق وفيها كانت زوجتي تنتظرني فعدت معها بعد يوم إلى بغداد، وكان معي على نفس الطائرة الفنان العراقي الراحل جواد سليم والمهندس قحطان المدفعي حيث كانا في زيارة قصيرة إلى دمشق.

وقبيل مغادرتي موسكو بيوم اتصل بي أحد المستعربين السوفيات وقال لي إن الشاعر الكبير ناظم حكمت يدعوني على عشاء في بيته الريفي، وكانت الدعوة هي أول لقاء به. وكان قرأ الترجمة الروسية لديواني ((اشعار في المنفى)) وأعجب بها. وقد كتبت عن هذا اللقاء مفصلا في كتابي ((تجربتي الشعرية)) وفي كتابي الاخر ((حرائق الشعراء)) وفي كتاب ((القيثارة والذاكرة)).

أما الزيارة الثانية فقد كنت في عام ١٩٥٩عندما عينت ملحقا ثقافيا في موسكو وامتدت اقامتي من نهاية ٥٩ حتى خريف عام ١٩٦٤. وهذه الإقامة لعبت دورا مهما في نهوضي الروحي والثقافي حيث اتاحت لي فرصة التعرف على معظم الأدباء السوفيات المعروفين والأجانب الذين كانوا يترددون على موسكو كما اتاحت لي فرصة اللقاء بكثير من الأدباء المنشقين الذين كانوا ممنوعين من السفر. وكنت احضر الكثير من النقاشات الجادة السياسية والثقافية.

كما عدت للالتقاء بناظم حكمت من جديد الذي كان يتصل بي ويدعوني إلى اللقاء في بيته أو في أحد المقاهي. ومن خلال هذه اللقاءات تعرفت على جيل الشباب الشعراء الذين يمكن أن نصفهم بجيل الخمسينات.

- ٢ -

كانت موسكو عاصمة عالميــة للثقافـة والفـن حيـث كـانت مسارحها تعج بآلاف البشر لمشاهدة روائع المسـرح الكلاسيكي والحديث وكذلك فرق الباليه والندوات الشعرية التي كان بعضها يقام في ملاعب كرة القدم ويحضرها أكثر من ١٠٠ ألف مسـتمع حتـى أن هـذه الملاعـب كـانت تضيـق بـالحضور وكـانت الميكروفونات تنقل ما كان يلقى إلى مسافات بعيدة من الشوارع المحيطـة بهـذه الملاعـب وكـانت السـلطة السـوفييتية قـد بـدأت تتحسس أن الدوائر ضاقت بها ففتحت بابا صغيرا لحريـة التعبير الأدبي. مـن خـلال هـذا البـاب الصغـير بـدأ الأدبـاء السـوفيات وبخاصة الجيل الجديد معاركهم مع أدباء السلطة وكذلـك بـدأوا يعبرون عن أحلامهم الجديدة ورؤيتهم لمـا يجـب أن يكـون عليـه المجتمع السوفياتي وكان معظـم هـؤلاء يملكـون مكـر الثعـالب إذ كانوا يلجأون إلى الاستعارات والكنايات التي كانت تحميهم ولا تقطع خط الرجعة عليهم وبعض هؤلاء الأدباء تمـادي في مواقفـه العدائيـة للسـلطة لأنهـم كـانوا يتمنـون زوالهـا فكـانت السـلطة تقمعهم وما قصة باسترناك ببعيدة عن الأذهان إذ أن هذا الشاعر العظيم كان ضحية للحرب الباردة والوشـايات والدسـائس الـتي

حيكت ضده من الجميع ولكونه نـال جـائزة نوبـل فأثـار حسـد الحساد والمصطادين في الماء العكر.

وكانت السلطة تنفي المنشقين إلى المنافي البعيـدة، أو تسـمح لهم بالسفر والغريب أن الجميع الذين ملأوا سماء بلادهم بالصراخ وهـاجروا إلى الخـارج كـانوا غـير موهوبـين باسـتثناء الشـاعر برودسـكي الـذي كـان يتعـرض في بـلاده إلى الدسـائس وإلى الحسد، والمافيات الجاهلة بجوهر الإبداع الفني والشعري.

والآخر كان سولجنيتسن الذي كان يمتلك موهبـة جبـارة في حقل الرواية وتاريخ بلاده وكاد يقـترب مـن الخـرف والتعصـب الأعمى حتى أنه لم ير الحقائق الموضوعية وما كان يدور في بلاده من صراع.

في حمى الدوران في هذا الفلك احسست أن شيئا مـا سيقع إن آجلا أو عاجلا وبـدأ أثـر ذلـك يظهـر في شـعري ومـن يقـرأ ديـوان ((النـار والكلمـات)) مثـلا سيجد شـارات كثـيرة خفيـة ومعلنة تشير إلى العفن والغيـوم السـوداء الـتي كـانت تتجمـع في سماء هذا البلد.

وعندما اثقلني الهم والأسى وأنا أرى ما أرى قررت الرحيل، وقد انقذني من هذا التورم الدعوة التي تلقيتهـا مـن الرئيـس عبـد الناصر لزيارة مصر أو للإقامة فيها وقد جمعت دفـاتري وأوراقـي ورحلت.

في تلك الفترة التي أقمت فيها في موسكو صدر لي بالروسـية ديوان ((طريق الحرية)) ويضم مختارات من شـعري، كمـا صـدر أيضا ديوان ((قمر أخضر)) الذي كتب عنه ناظم حكمت مقالـة مؤثرة كانت بمثابة وصية منه إلى الأحياء لأنه مـات بعـد أن دفـع

المقال إلى الجريدة الأدبية التي يصدرها اتحاد الكتاب السوفيات بيومين. وقد أشارت الجريدة إلى أن هذه المقالة هي آخر ما كتبه ناظم حكمت.

كما أود أن أشير إلى أنني في تلك السنوات سافرت إلى معظم البلدان السوفياتية وإلى القفقاس وسيبيريا وسافرت إلى فنلندا والسويد والدنمارك والمانيا وتشيكوسلوفاكيا وتعرفت على الكثير من الشعراء والأدباء.

أما الزيارة الثالثة فقد كانت في عام ١٩٧٢ ضمن الوفد الثقافي العراقي لتوقيع اتفاقية للتعاون الثقافي مع جمهورية ارمينيا وفي تلك الزيارة تجولت في موسكو قبل أن اذهب إلى يريفان بحثا عن منازل ((لارا)) ولما أعياني البحث كدت أموت من الحمى لأنني تعرضت إلى المطر لساعات طويلة، وبعد اقل من سنتين كتبت قصيدة ((أولد واحترق بحبي)) التي اشتهرت بعد نشرها بالعربية أو باللغات الأخرى ونشرت ضمن قصائد ديوان ((قمر شيراز)) الذي صدر عام ١٩٧٥ في بغداد. وما رأيته في هذه الزيارة الأخيرة أن موسكو بدأت تتغير أكثر فأكثر واحسست أن العاصفة الوشيكة تتحرك ببطء وربما تحتاج إلى سنوات أخرى لكي تهب وتقتلع كل شيء بفعل القطط السمان واللصوص والمتآمرين وقد حدث ما كنت احسه واتوقعه.

وأقولها شهادة للتاريخ أن الحياة في تلك البلاد على علاتها كانت أفضل من الحياة اليوم بمليون مرة.

فلقد هزم رجال السياسة نتيجة تواطئهم وجبنهم وانتهازيتهم ولكن الذي دفع الثمن هو الشعب الروسي الذي كان ينشد العدالة والحرية والديمقراطية خارج حدود

الايديولوجيا.

ولكن يظهر أن الانتهازيين كانوا أشبه بالدب الـذي أراد أن ينقذ صاحبه فهذبه بالحجر وقتله.

وآخر ما سمعت عن أخبار المثقفـين في هـذا البلـد أن شـاعرا مهما ((لا أريد ذكر أسمه)) أراد أن يطبع ديوانـا جديـدا لـه فلـم يجد إلا بنكا صغيرا لكي يموله عن أجور الطبع وقد طبع من هـذا الديوان ٥٠٠ نسـخة فقـط وكـان أيـام زمـان يطبـع أكـثر مـن نصف مليون نسخة من دواوينه، وهـذا يعـني أن المثقفـين وليـس الشعب وحده دفعوا ثمنا فادحا نتيجة ما جرى.

أمريكا كانت وعودا

- ١ -

لما تلقيت دعوة في ربيع ١٩٧٦ لحضور مؤتمر آداب الشرق الأوسط بمبادرة من نادي القلم الدولي وجامعة برنستون، تذكرت قصيدة الشاعر والناقد ارشيبالد ماكليش ((أميركا كانت وعودا)) فعدتُ إلى قراءتها.

وعندما وصلت مطار نيويورك، لم أجد أحدا في انتظاري فقلتُ لنفسي لا تنس أنك الآن في برج بابل ولا يمكن لأحد أن يضحي فيه بعطلة نهاية الأسبوع.

اخترت فندقا في الشارع الخامس لكي أكون قريبا من المبنى الذي يقع فيه نادي القلم الدولي، اتصلتُ في الصباح فردّ على البرفوسور ((ت. هالمان)) الشاعر والوزير السابق في حكومة بلند أجاويد التركية وأستاذ الأدب التركي في جامعة ((برنستون)) ونائب رئيس نادي القلم الدولي.

قال: ستأتي سيارة بعد نصف ساعة لتقلك إلى الفندق الذي حجزنا فيه لجميع المدعوين، كنت اوّل من حضر، زارتني ظهرا الدكتورة منى ميخائيل الأستاذة في جامعة نيويورك وهي

أميركية من أصلٍ مصري، ذهبنا إلى مطعم قريب ثم ذهبنا إلى الحي الجامعي. تشعر وأنت في هذا الحي أنك في باريس أو لندن، مظهر الطلبة الوديع، والهدوء الذي لا يسبق العاصفة.

قضيت الهزيع الأول من الليل اتنقّل من مقهى إلى مقهى وعندما تعبت عدت إلى الفندق. وفي طريق العودة ظهرت فجأة سيارات للشرطة تطارد قطيعا من بنات الليل، سقطت احداهن أرضا، اقترب منها شرطي وكاد يضربها ولكنّ زميلاً له نهره فلم يفعل، حُمِلت الطريدة إلى احدى السيارات وهي تسبُّ وتشتم، أما البقية فقد اختفين تحت جنح ظلام برج بابل.

اقترب مني عجوز ثمل، دون أن أسأله: هذه المهزلة تحدث كل ليلة وأعدادهن وأعداد المتسوّلين واللصوص الصغار والمشردين في ازدياد. ثم التفت إليَّ وقال ماذا تفعل وحدك في هذا الليل؟

عبرت الشارع مدعيا أنني لا أسمعه. قال إلا أستحقُّ منك دولارا لقاء نصيحتي هذه، فالنصائح والأسئلة في هذه البلاد تكلف كثيرا. بدءا بالطبيب وانتهاء بالمومس ورجل الشرطة.

سمعت صوت ديك يصيح، ربما كنت واهما فهذه المدينة ليس فيها ديكة تصيح بل فيها مقر الأمم المتحدة والفنادق الفخمة والحالمون والصيارفة والشعراء وجنرالات متقاعدين برسم البيع وعصابات الجريمة المنظمة وأحفاد دكتاتوريي العالم الثالث الراحلين والسحرة والمجوس والفقراء والملل والنحل المشكوك بها في بلادها وهم يقفون في أسفل السلم الاجتماعي واللاهوتي والإنساني والمعرفي والبغايا وكان وأخواتها!

قلت لموظف استعلامات الفندق هل هناك ديكة ما تزال

تصيح في أميركا؟

قال: ربما، ولكني لا أعرف، قلت: من يعرف إذن؟

قال: ربما كيسنجر وحده هو الذي يعرف، فمن يقرأ ما يكتبه يعتقد أنه يعرف كل شيء.

قلت له: هل تعرف قصة الفيل الذي سرقه رجال أحد الطغاة من حديقة حيوان. قال لا. قلت: الافضل أن لا تعرف.

- ٢ -

حمل المهاجرون الأوائل معهم إلى العالم الجديد اسما لهم وقبور موتاهم وكان بإمكان هذا السماد الميتافيزيقي أن يجعل من هذه البلاد المدينة الفاضلة العالمية وبوابة للذين يبحثون عن الخلاص الأرضي والماورائي، ولكن العجل الذهبي الذي أصبح بديلا لكل شيء أجهض هذا الحلم الكبير.

كان وجه الكاتب المسرحي الكبير ارثر يوحي بموت هذا الحلم، وهو يتحدث في افتتاح مؤتمر آداب الشرق الوسط في أحد مسارح نيويورك. قال كلمات كثيرة غير مباشرة تنطوي على اشارات غامضة ونذر. أما ادوارد البي الكاتب المسرحي الآخر فقد تحدث عن المسرح ودوره في زعزعة الثوابت دون أن يشير إلى آلة القمع المنظم الوحشية التي أصبح بامكانها الغاء أي دور للفن الحقيقي. أما الدكتور يوسف ادريس فقد كان واضحا ومباشرا في كلمته التي جعلت الكتاب والناشرين الأمريكان الذين كانوا يملأون القاعة يصغون باهتمام شديد، حتى أنهم اعترضوا على اتهامهم بإهمال الأدب العربي وأعادوا الكرة إلى المرمى بحجة أن العرب الأمريكان يتحملون قسطا من هذه التبعة. آخرون تكلموا لا أتذكر أسماءهم الآن، ولكن الذي لفت

نظري وأنا أصغي إلى من تحدثوا: أن احساسا بالغربة الوجودية كان يهيمن على رجال الثقافة، فالتقارب والقرب والجوار والحوار والتلاقي بين الثقافات العالمية الذي تم في بحر القرن العشرين بدأ الآن يتصدع بفعل الهيمنة الأحادية التي سلبت من هذه الثقافات جوهرها الفاعل واقتلعت بعضها من جذورها. يشار كمال الروائي الكبير كان أكثر وضوحا من الجميع فقد جمع في حديثه بين طموحه الشخصي ليشق طريقه في مدار الأدب العالمي ومحاولة طمس والغاء شعبه ورفض أن يساوم لا في هذا ولا في ذاك. أصبحت أنا ويشار كمال صديقين منذ اليوم الأول وقال لي: إنه يعرفني من خلال أحاديث وكتابات ناظم حكمت عني ومن خلال قصائدي التي نشرت مترجمة في الصحف والمجلات التركية.

بدأ المدعون في حوارات وأحاديث جانبية حرة بعد أن انتهت جلسة الافتتاح. الدكتور يوسف ادريس قدمني إلى آرثر ميلر، فاقترح ميلر أن نقوم بجولة في شوارع نيويورك ونتناول فنجان قهوة في أحد مقاهي الشارع. كان الازدحام شديدا مما اعاق سيرنا. توقفنا عند مقهى، آرثر ميلر يتحرك مثل أحد أبطال مسرحياته، متواضعا بسيطا. يوسف ادريس يحدثه عما تركته القراءة الأولى لمسرحية (موت بائع جوال)، ميلر يتسم ويقول إنه لا يعرف أن مسرحيته هذه قد ترجمت إلى العربية.

- ٣ -

غادرنا في اليوم التالي نيويورك متوجهين إلى جامعة برنستون وهناك تم جمع شمل الكتاب والأدباء العرب المدعوين أذكر منهم: الدكتور احسان عباس، الدكتور عرفان شهيد، الدكتور حليم بركات، الدكتور يوسف ادريس، الاستاذ يحيي حقي، الدكتور محمد شكري عياد، الدكتور محمد باقر علوان، ادونيس، الدكتورة سلمى الجيوسي، الدكتور أحمد مرسي، الدكتورة منى ميخائيل.

أما أشهر المدعوين من بلدان الشرق الأوسط، فقد كان يشار كمال الروائي التركي الكبير (من أصل كردي) والشاعر الإيراني محمد رضا كدكني والأخير كان أول من ترجم شعري إلى الفارسية حيث نشر مختارات منه بعنوان (أغاني السندباد) صدرت الطبعة الاولى منه أيام حكم الشاه والطبعة الثانية بعد الثورة الإسلامية فنال شهرة واسعة في الأوساط الأدبية الإيرانية ثم صدرت لي كتب أخرى بالفارسية ترجمها آخرون منها (عيون الكلاب الميتة، اشعار في المنفى، قمر شيراز).

توزع المؤتمرون على حلقات دراسية تناولت بالعرض والدرس مختلف جوانب الأدب العربي وآفاق تطوره.

وقد قدمت بحثا مكتوبا تناولت فيه المدارس والاتجاهات الـتي سادت الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشـرين، وقـد كشفت في هذا البحث المبكر الفرق الكبير بـين الشـعر السريالي والشعر الصوفي (رؤية ولغة واتجاها).

أما أطرف البحوث التي قدمت فقد كان بحث الدكتور محمـد بـاقر علـوان بعنـوان (الأدب العربـي المعـادي لأمريكـا، مـن أب مصري إلى ترومان، نموذجا) لعبد الرحمن الشرقاوي ثم أقام نـادي الجامعة حفلا ساهرا، قرأت فيه الدكتورة منى ميخـائيل صفحـات مترجمة بقلمها من رواية الدكتور ادريـس (بيـت مـن لحـم) وتمـت أيضـا قـراءة قصـائد لي ولادونيـس بالانكليزيـة، وكـانت القــراءة مصحوبـة بالموسيقى ثـم قرأنـا نحـن بدورنـا النصــوص المقـروءة بالعربية.

البرفيسور ت. هالمان قـدم لي احـدى طالباتـه وكـانت تعـد رسالة دكتوراة عن ناظم حكمت، لأتحدث لها عن ذكرياتي عـن ناظم حكمت واجيـب علـى بعـض أسئلتها. وقـد كـان لهـا مـا أرادت.

بـدأ المدعـوون يغـادرون الواحـد تلـو الآخـر وكنـت أنـا والدكتور محمد باقر علوان آخر من غادر برنستون، فقد كنـا في انتظار القطار إلى واشنطن.

أصر الدكتور علوان على أن أكون ضيفه في واشنطن. زرت معه جامعة جورج تاون التي كان يعمل فيها. وكنا نسهر طـوال الليل: النصف الأول منه في المقاهي والتجوال والنصف الثـاني في البيت. كانت هذه هي زيارتي الاولى لأمريكـا وفي صيـف العـام نفسـه ١٩٧٦ تلقيـت دعـوة أخـرى مـن منظمـة الطلبـة العـرب لحضور مؤتمرهم السنوي الذي عقد في هيوستن/تكساس.

- ٤ -

في عام ١٩٨٩ تلقيت دعوة من جامعة جورج تاون لحضور مهرجان الشعر العربي. وكان الشاعر قاسم حداد والشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي ضمن المدعوين. وقد قامت الصحافة العربية الأميركية بتغطية هذا المهرجان وصوت أميركا والشبكة العربية الأميركية للتلفزيون. وكان الدكتور بسام فرنجية الأستاذ في جامعة جورج تاون هو المشرف والمنظم لهذا المهرجان. ذهبت مع الأصدقاء في جولات زرنا خلالها بعض المكتبات ونصب لنكولن وجفرسون وجورج واشنطن التذكارية، ودعيت إلى مكتبة الكونغرس لتسجيل بعض أشعاري لحفظها في أرشيف المكتبة. كان د. بسام فرنجية، منذ التقيت به عام ١٩٨٨ في تونس أثناء المؤتمر الدولي للترجمة وحوار الثقافات الذي عقد في الحمامات قد بدأ يخطط لتنفيذ مشروع طموح، ويجمع المصادر ويقرأ ويختار. قال سأبدأ من عام ١٩٦٩ لأن شعرك الذي سبق هذا التاريخ قد ترجم معظمه. وقال: إن هيئة النشر في جامعة جورج تاون ابدت استعدادها لنشره وتحبذ أن يكون ثنائي اللغة يقابل النص الانجليزي المترجم فيه النص العربي. وعندما عدت إلى مدريد حيث أقيم بدأ د. فرنجية بالبريد والهاتف يتصل بي

باستمرار ويتقصى كل شاردة وواردة حتى اكتمل المشروع. وقبل وضع اللمسات الأخيرة عرضت إدارة النشر الترجمة على بعض الأساتذة الكبار ـ وهي عادة متبعة في كل دور النشر العالمية ـ حتى يصار إلى نشر وجهة نظرهم على الغلاف الأخير وكان من هؤلاء الأساتذة البروفيسور هشام شرابي والشاعر وصاحب دار نشر القارات الثلاث H.E.HERDECK والدكتور حليم بركات والدكتور عرفان شهيد والأب سليمان سارا أستاذ اللغويات في جامعة جورج تاون والدكتور إبراهيم إبراهيم أستاذ الدراسات العربية المعاصرة والروائي صنع الله إبراهيم. وشبه الشاعر HEERDECK ترجمة الكتاب بعملية تحويل الذهب إلى ذهب. أما البرفيسور هشام شرابي فقد قال عنها (ترجمة رائعة تأسر جمال شعر البياتي، إنها مساهمة مدهشة تقدم أخيرا هذا الشاعر العربي العظيم باللغة الانجليزية) أما صنع الله إبراهيم فقد قال (ترجمة مثل هذا الشعر الصعب المتعدد الأقنعة جوهرة حقيقية)

وكانت النسخة الأولى من (حب وموت ونفي) قد أرسلت إليّ في لوس انجلوس عام ١٩٩٠مع دعوة من جامعة جورج تاون للحضور إلى واشنطن لقراءة شعرية وحفل توقيع على الكتاب. وقد صدرت الطبعة الثانية من (حب وموت ونفي) عام ١٩٩١ويقع في ٣١٤ صفحة ويضم مقدمة مطولة للمترجم وتعريفا باسماء الإعلام والمدن والأساطير. والمختارات التي ضمها الكتاب هي من (عيون الكلاب الميتة ـ الكتابة على الطين ـ قصائد حب على بوابات العالم السبع ـ كتاب البحر ـ سيرة ذاتية لسارق النار ـ قمر شيراز ـ مملكة السنبلة ـ بستان عائشة).

- ٥ -

في شباط ١٩٩١ وصلت واشنطن قبل موعد الأمسية الشعرية بعدة أيام وكانت القوات الأميركية تقصف بغداد منذ ثلاثين يوما وكانت محطات التلفزيون وبخاصة ((C.N.N.))تنقل وقائع هذا القصف، وقد أجرى راديو ((صوت أمريكا)) حوارا مطوّلا معي بثته جميع وكالات الأنباء في مختلف بلدان العالم أدنت فيه القصف الوحشي لمدينة بغداد الذي تركز على الأهداف المدنية وشبهت القصف بعملية قتل المدن.

كما أجرت صحيفة ((واشنطن بوست)) مقابلة مطوّلة معي نشرت في الصفحة الأولى الثقافية، وذكرت الصحيفة في نهاية المقابلة أنه ستقام أمسية شعرية للشاعر في جامعة جورج تاون في الساعة الخامسة مساءً، كما سيقوم بالتوقيع على كتابه الجديد الصادر عن منشورات جامعة جورج تاون، وكان ذلك اليوم ممطرا وشديد البرودة. امتلأ المدرج الذي يتسع لـ ٥٠٠ شخص وكان أكثر من هذا العدد يجوبون الصالة المجاورة. قام الأب الدكتور سليمان سارا بتقديمي إلى الجمهور وتحدث عن تاريخي الشعري وأشاد بحضارة وادي الرافدين ودعا العالم إلى التسامح والمحبة والإنسانية وقام الدكتور عرفان شهيد بعرض دوري في

النهضة الشعرية ووصفني بأنني أفضل الشعراء العرب. ثمّ وقف إلى جانبي الأب الدكتور برسلين أستاذ الأدب الشكسبيري في جامعة جورج تاون ومسؤول النشر في الجامعة. كنت أقرأ بالعربية، فيما قام الأب برسلين بترجمة النصوص إلى الانجليزية واستمرت القراءة أكثر من ساعة.

على طاولة أنيقة مليئة بالزهور، كما وصفها الدكتور بسام فرنجية، قمت بالتوقيع على ٣٠٠ نسخة من الكتاب وهي كل ما كان موجودا.

في اليوم التالي، أقام السفير اليمني محسن العيني عميد السلك الدبلوماسي آنذاك مأدبة عشاء حضرها عدد كبير من العرب والأمريكان تحدث فيها الدكتور كلوفيس مقصود سفير الجامعة العربية في واشنطن عن دوري في خدمة الشعر العربي وقضايا العرب القومية.

في جامعة كولومبيا وهي ثاني جامعة أقوم فيها بالتوقيع على كتابي قدمني الدكتور بيير كاكيه رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط ومما قاله: ((البياتي أسطورة حية لا تزال تعيش بيننا)) وقامت شابتان بتبادل قراءة الترجمة الانجليزية ثم تلى الأمسية حفل استقبال وقّعتُ فيه على عدد من نسخ الكتاب.

حينما علم صديقي الدكتور فوزي عبد الرزاق الأستاذ في جامعة هارفارد بأنني سأكون في جامعة كولومبيا هرع إلى لقائي هناك وذهب معي إلى جامعة برنستون حيث جرى حفل توقيع أيضا. قدمتني فيه الدكتورة مارغريت لارنكن أستاذة الادب العربي في الجامعة ووصفتني بأنني شاعر العصر وقرأت ترجمة النصوص إلى الانجليزية.

كان بانتظارنا في جامعة بنسلفانيا لجنة تنظيم الأمسية وقام الدكتور روجر ألن ريش قسم دراسات الشرق الأوسط بترجمة النصوص إلى الانجليزية ووصفني بأنني أفضل الشعراء العرب اليوم.

عند العودة إلى نيويورك استضافنا صديقي الفنان المصري الكبير أحمد مرسي الذي يعيش هناك منذ أكثر من ربع قرن وكذلك سفير دولة قطر وكان الاحتفال بتوقيعي على كتاب ((حب وموت ونفي)) في أربع جامعات مهمة حدثا كبيرا في حياة المثقفين الأمريكان من أصول عربية، وقد غطى التلفزيون العربي الأميركي وجريدة الشرق الأوسط والحياة ومجلة ((الأسبوع العربي)) وبعض الصحف الخليجية تفاصيل ما جرى وكان من أهمها الحوار الذي أجراه معي الشاعر اللبناني هنري زغيب ونشرته جريدة الحياة على حلقتين.

المحتويات



هذا الكتاب

يستكمل البياتي في كتابه الجديد "مدن ورجال ومتاهات" ماكان قد بدأ في كتابه " تجربتي الشعرية " وواصله في " حرائق الشعراء" و "ينابيع الشمس" و "تحولات عائشة"، حيث يدوّن سيرته الشخصية مع اعلام الثقافة العراقية والعربية الذين عرفهم، والمدن التي مرّ بها مسافراً ومنفياً فهو "كالماء والريح لايستقرّ بأرض". كما يقدم البياتي في هذا الكتاب اصغاءً عميقاً لعوالمه الداخلية عبر متاهاتٍ يرتادها مازجاً فيها الاسطوري بالواقعي، والحكايات الشعبية بالواقعة التاريخية.

فمن نجيب محفوظ والجواهري الى بلند الحيدري وحسين مروان وسواهم، ومن بغداد ودمشق الى موسكو والقاهرة يرسم البياتي خرائط رحلته وتأمله في الناس والمدن، حيث الرجال الذين يعبرون "مستنقع التاريخ" ويتركون آثارهم وظلالهم والمدن التي جاءها البياتي "من لامكان".

وعبر "المتاهات" ينجز البياتي رحلته ليصل الى "متاهة الوحدة" بحسب تعبير الشاعر المكسيكي اوكتافيو باث.

الناشر